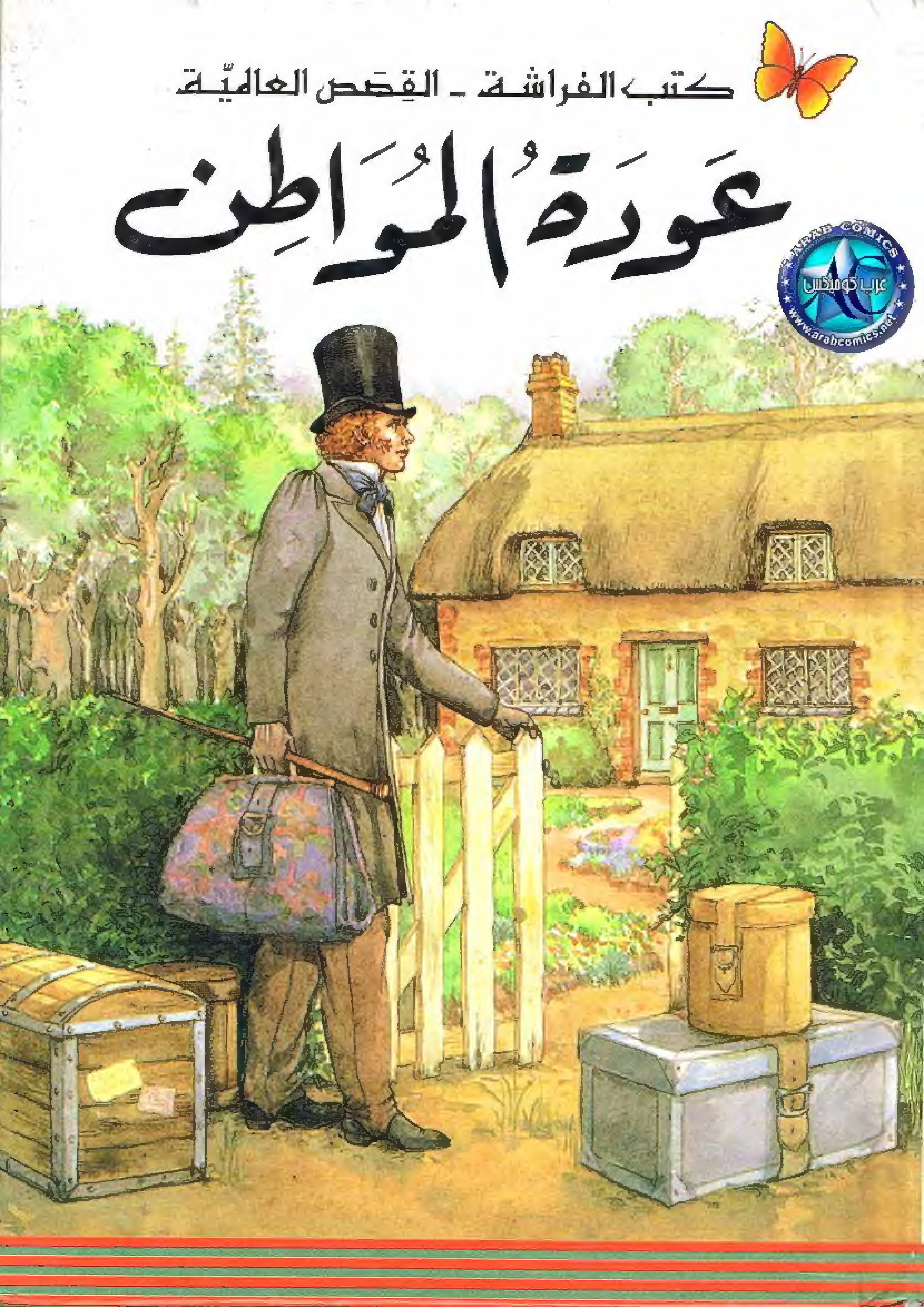

كتب الفراشة - القصص العالميّة
عَودَةُ المُواطِن
عرب كومكس
ARAB COMICS
www.arabcomics.net

كتب الفراشة - القِصَص العالميّة

عَوْدَةُ المُواطِن



تأليف : توماس هاردي

ترجمة : محمّد حِلمي محمُود

مُراجعة : وَجْدي رزق غالي



مكتبة لبنان ناشِرُون

مكتبة لبنان ناشرون ش.م.ل
زقاق البلاط - ص.ب: ٩٢٣٢-١١
بيروت - لبنان
وكلاء وموزعون في جميع أنحاء العالم

الطبعة الأولى ١٩٩٥

رقم الكتاب 01 C 196811

طبع في لبنان



مقدمة

ظَهَرَتْ رِوايَةُ توماس هاردي «عَوْدَةُ المُواطِنِ» [The Return of the Native] في اثْنَتَيْ عَشْرَةَ حَلْقَةً في «مَجَلَّة بلْغرافيا» سَنَةَ ١٨٧٨، ثُمَّ نُشِرَتْ في كِتابٍ واحِدٍ في العامِ نَفْسِهِ. وهِيَ واحِدَةٌ مِنْ بَواكيرِ رِواياتِهِ الَّتي لاقَتِ اسْتِحْسانًا لَدى النُّقّادِ ورَواجًا لَدى الجُمْهورِ.

يَعودُ الفَضْلُ في نَجاحِ هٰذِهِ الرِّوايَةِ إلى مَتانَةِ الحَبْكَةِ في قِصَّةِ الحُبِّ الَّتي تُعالِجُها. وقَدْ كانَ هاردي مُولَعًا بِفِكْرَةِ حُبِّ رَجُلَيْنِ لِامْرَأَةٍ واحِدَةٍ تَقَعُ في حَيْرَةِ الاخْتِيارِ بَيْنَهُما. فَهُوَ هُنا يَرْسُمُ، بِدِقَّةٍ نابِضَةٍ، شَخْصِيَّةَ الفَتاةِ الجَميلَةِ يوسْتاسْيا فاي الَّتي يَقودُها حُبُّ المُغامَرَةِ والإثارَةِ إلى الزَّواجِ مِنْ رَجُلٍ بِالرَّغْمِ مِنْ حُبِّها لِرَجُلٍ آخَرَ. ويُظْهِرُ لَنا هاردي كَيْفَ أَنَّ تَرَدُّدَ يوسْتاسْيا واخْتِيارَها الخاطِئَ سَبَّبا سِلْسِلَةً طَويلَةً مِنَ التَّعْقيداتِ والآثارِ السَّلْبِيَّةِ عَلى مَجْرى حَياةِ العَديدِ مِنَ الأَشْخاصِ الَّذينَ تَحَكَّمَتْ بِهِمْ شَبَكَةٌ مُعَقَّدَةٌ مِنَ العَلاقاتِ المُشَوَّشَةِ والأَهْواءِ المُتَضارِبَةِ.

لَمْ يَهْتَمَّ هاردي بِالنّاسِ فَحَسْبُ، وإنَّما بِالبيئَةِ الَّتي يَعيشونَ فيها أَيْضًا، فَقَرْيَةُ «إغدون هيث» - مَسْرَحُ الأَحْداثِ - تَقَعُ في مُقاطَعَةِ «دورْسِت» الرّيفِيَّةِ حَيْثُ نَشَأَ هاردي، ولِذٰلِكَ وَصَفَها بِالتَّفْصيلِ في كِتابِهِ. وهُوَ يُشيرُ إلى مَدى تَأْثيرِ هٰذِهِ البيئَةِ في رَسْمِ شَخْصِيّاتِ النّاسِ وأَعْمالِهِمْ، ويُشَدِّدُ عَلى أَنَّ النّاسَ يَتَنَقَّلونَ ويَتَغَيَّرونَ أَمّا المِنْطَقَةُ فَتَظَلُّ ثابِتَةً. إنَّنا، في الواقِعِ، نَلْمُسُ أَنَّ في «إغدون هيث» نَمَطَ حَياةٍ تَقْليدِيًّا راسِخًا لا يَتَبَدَّلُ مَهْما حاوَلَ كليم يوبرايت تَغْييرَهُ أَوْ مَهْما حاوَلَتْ يوسْتاسْيا مُقاوَمَتَهُ وتَجَنُّبَهُ.

وتَبْرُزُ، في الرِّوايَةِ، فِكْرَةُ هاردي الرَّئيسِيَّةُ، وهِيَ أَنَّ لِلبيئَةِ الرِّيفِيَّةِ تأْثيرًا عَميقًا على سَعادَةِ الأَفْرادِ. فَيوسْتاسْيا ڤاي لَنْ تَعْرِفَ الرِّضا أَبَدًا في «إغدون هيث» لِأَنَّها تَكْرَهُ قَساوَةَ تِلْكَ القَرْيَةِ وكَآبَتَها، وتَتوقُ إلى بَهْجَةِ حَياةِ باريس وإشْراقِها. أَمّا كليم يوبرايت، الّذي وُلِدَ في القَرْيَةِ، فَإِنَّهُ ظَلَّ -في غُرْبَتِهِ- دائِمَ الحَنينِ إِلَيْها لِاقْتِناعِهِ بِأَنَّهُ لَنْ يَذوقَ طَعْمَ السَّعادَةِ خارِجَ مَوْطِنِهِ. والانْطِباعُ الّذي يُريدُنا هاردي أَنْ نَخْرُجَ بِهِ هُوَ أَنَّ المَرْءَ لا يُحَقِّقُ سَعادَتَهُ إِلّا إِذا كانَ مُنْسَجِمًا مَعَ نَفْسِهِ ومَعَ مُحيطِهِ.





كانَ اللَّيلُ يُرْخي سُدولَهُ على إغدون هيث في يَوْمٍ غائمٍ مِنْ أيامِ شَهْرِ نوفمبر، وَقَدْ لاحَ المَكانُ وَكَأَنَّهُ يَزْفِرُ مِنْ جَوْفِهِ الوَحْشَةَ وَالظَّلامَ موحِيًا بِنُزولِ فاجِعَةٍ.

وَعَلى الطَّريقِ كانَ يَمْشي عَجوزٌ أَشْيَبُ الشَّعْرِ مُحْدَوْدِبُ الظَّهْرِ، وَقَدْ دَسَّ نَفْسَهُ في زِيِّ ضابِطٍ بَحْرِيٍّ. وَلَمَحَ ذَلِكَ الرَّجُلُ عَرَبَةً يَجُرُّها حِصانٌ وَهِيَ مِثْلُ كُلِّ العَرَباتِ شَكْلًا إلّا في لَوْنِها الأَحْمَرِ المُتَمَيِّزِ، الَّذي كانَ هُوَ لَوْنَ ثِيابِ الحوذِيِّ الَّذي يَقودُ تِلْكَ العَرَبَةَ. وَكانَ اسْمُهُ ديغوري فِين، الصَّبّاغَ، وَكانَ يَضْرِبُ في الأَرْضِ العَريضَةِ فَيَبيعُ صِبْغَةً كَلَوْنِ التُّرابِ الأَحْمَرِ تُسْتَعْمَلُ في تَمْييزِ الماشِيَةِ.

وَتَبادَلَ العَجوزُ وَالصَّبّاغُ عِباراتِ التَّحِيَّةِ، ثُمَّ تَقَدَّمَ العَجوزُ وَنَظَرَ داخِلَ العَرَبَةِ، وَسَأَلَ الحوذِيَّ: «أَفي العَرَبَةِ شَيْءٌ زائِدٌ عَلى حِمْلِكَ؟»

قالَ الحوذِيُّ: «أَجَلْ! شَخْصٌ ما في مِحْنَةٍ – سَيِّدَةٌ شابَّةٌ الْتَقَطْتُها عِنْدَ مَوْقِعِ أنجلبري. وَلَيْتَها تَظَلُّ غارِقَةً في سُباتِها حَتّى أُبْلِغَها دارَها.» فَقالَ العَجوزُ: «أَلَيْسَتْ هِيَ فَتاةَ بلومز إند الَّتي لا تَزالُ تَلوكُ سيرَتَها الأَلْسُنُ؟» وَأَجابَ الحوذِيُّ: «لا عَلَيْكَ يا سَيِّدي! عَلَيْنا أَنْ نَفْتَرِقَ الآنَ، فَإِنّي في حاجَةٍ إِلى الرّاحَةِ. طِبْتَ مَساءً!»

تَلَفَّتَ الصَّبّاغُ حَوْلَهُ وَسَرَّحَ الطَّرْفَ في الأَكَمِ الصَّغيرَةِ والوِهادِ والشُّروخِ الَّتي تَصاعَدَتْ لِتَنْتَهِيَ إلى مَدْفَنٍ قَديمٍ تَعالى وَطَغى عَلى المَكانِ. وَإِذْ راحَ يُحَدِّقُ في ذٰلِكَ المَدْفَنِ رَأى في أَعْلاهُ شَخْصًا أَشْبَهَ بِتِمْثالٍ أَوْ حَرْبَةِ خوذَةٍ. تَحَرَّكَ الشَّخْصُ فَجْأَةً وَانْزَلَقَ في الجانِبِ الآخَرِ مِنَ المَدْفَنِ، كَانْزِلاقِ قَطْرَةِ النَّدى عَلى البُرْعُمِ، وَتَوارى عَنْ ناظِرَيْهِ. وَبَدا واضِحًا مِنْ تَحَرُّكاتِ ذٰلِكَ الشَّخْصِ أَنَّهُ امْرَأَةٌ.

وَما إِنْ غادَرَتِ المَرْأَةُ ذٰلِكَ المَكانَ حَتّى لاحَ نَفَرٌ مِنَ الرِّجالِ وَالفِتْيانِ راحوا يَصْعَدونَ المَدْفَنَ بِمَشَقَّةٍ وَيَتَحَلَّقونَ حَوْلَهُ، حامِلينَ حُزَمًا مِنَ الحَطَبِ كانوا قَدْ جَمَعوها ثُمَّ جَعَلوا مِنْها هَرَمًا عَلى رَأْسِ الأَكَمَةِ. لَقَدْ كانوا يَتَهَيَّأُونَ لِإيقادِ نارٍ، إِذْ كانَ ذٰلِكَ أَحَدَ تَقاليدِهِم في رينبارو، يَتَّبِعونَهُ، مُنْذُ أَجْيالٍ عَديدَةٍ، في الخامِسِ مِنْ شَهْرِ نوفَمْبر مِنْ كُلِّ عامٍ.



وَكانَ مِنْ بَيْنِ موقِدي النّارِ الجَدُّ كاتِل، ذٰلِكَ الشَّيْخُ الَّذي انْطَلَقَ يَرْقُصُ حَوْلَ النّارِ مُتَرَنِّمًا بِبَعْضِ المَواويلِ القَديمَةِ الغَريبَةِ. وَوَقَفَ بِجِوارِهِ ابْنُهُ كريستيان السّاذَجُ، الَّذي كانَ يَرْقُبُهُ في إِعْجابٍ وَقَلَقٍ.

وَلَمّا تَوَقَّفَ الشَّيْخُ لِيَسْتَرِدَّ أَنْفاسَهُ، اسْتَدارَ إِلى تيموثي فيرويبي قائِلًا: «حَدِّثْني عَنِ العَريسَيْنِ الجَديدَيْنِ في فُنْدُقِ كوايت وومان.»

أَجابَهُ فيرويبي: «في بادِئِ الأَمْرِ مَنَعَتِ السَّيِّدَةُ يوبرايت، امْرَأَةُ عَمِّ الفَتاةِ، طُقوسَ عَقْدِ الزَّواجِ مِنَ الإِتْمامِ بِأَنْ أَعْلَنَتْ رَفْضَها لِهٰذا الزَّواجِ. لٰكِنَّها عادَتْ وَعَدَلَتْ عَنْ رَأْيِها في النِّهايَةِ.»

صاحَ الجَدُّ كاتِل: «إِذًا أَصْبَحَ دامون ويلديف وَتوماسين يوبرايت آخِرَ الأَمْرِ زَوْجَيْنِ.»

أَجابَ تيموثي: «يَغْلِبُ عَلى الظَّنِّ، لٰكِنَّ ذٰلِكَ التَّحَوُّلَ كانَ غَريبًا مِنَ السَّيِّدِ ويلديف؛ إِذْ إِنَّهُ كانَ قَدْ أَعَدَّ نَفْسَهُ لِيَكونَ مُهَنْدِسًا. أَمّا الآنَ فَهُوَ مالِكٌ لِلْكوايت وومان.»

وَعَقَّبَ الشَّيْخُ: «إِنَّ ذٰلِكَ الزَّواجَ هُوَ الَّذي جاءَ بِكْليم يوبرايت مِنْ باريس، وَإِنَّ حُضورَهُ لَمُنْتَظَرٌ في أَيَّةِ لَحْظَةٍ، كَما يُشاعُ.»

وَبَيْنَما كانا يَتَجاذَبانِ أَطْرافَ الحَديثِ، لَمَحا نارًا تَسْطَعُ عَلى بُعْدِ ميلٍ في أَرْضِ مَنْزِلِ الضّابِطِ الشَّيْخِ في ميستوفر. قالَ أَحَدُ القَرَوِيّينَ: «إِنَّ ذٰلِكَ الضّابِطَ غَريبُ الأَطْوارِ؛ إِذْ كَيْفَ يوقِدُ نارًا في مَكانٍ حَيْثُ لا شَبابَ يَتَمَتَّعونَ وَيَمْرَحونَ؟»

قالَ فيرويبي: «بَلْ إِنَّها حَفيدَتُهُ، كَما أَعْتَقِدُ، هِيَ الَّتي أَوْقَدَتِ النّارَ. وَإِنَّها لَفَتاةٌ غَريبَةُ الأَطْوارِ تِلْكَ الَّتي تَعيشُ هُناكَ مَعَ جَدِّها الشَّيْخِ وَحْدَهُما.»

وَإِذْ راحَ القَوْمُ بَعْدَ ذٰلِكَ يَرْقُصونَ وَيَمْرَحونَ حَوْلَ جَذْوَةِ النّارِ الآخِذَةِ في الخُمودِ، مُصاحِبينَ بِضْعَ نِساءٍ مِنَ الفَلّاحاتِ، شاهَدوا غَريبًا يَدْنو مِنْهُمْ بِعَرَبَتِهِ. وَلَمْ يَكُنْ ذٰلِكَ الغَريبُ سِوى الصَّبّاغِ – الَّذي تَحَدَّثْنا عَنْهُ آنِفًا – حامِلًا داخِلَ عَرَبَتِهِ، تِلْكَ المُسافِرَةَ الخَفِيَّةَ الَّتي لَمْ تَزَلْ بِصُحْبَتِهِ.

قالَ الصَّبّاغُ: «طابَتْ أُمْسِيَّتُكُمْ. هَلْ ثَمَّةَ طَريقٌ تَسْلُكُهُ العَرَباتُ إلى دارِ السَّيِّدَةِ يوبرايت؟» فَأَجابَ تيموثي فيرويبي: «أَجَلْ. اتَّبِعْ هٰذا الطَّريقَ إلى اليَمينِ.»

وَما كادَ الصَّبّاغُ يَتَوارى عَنْ أَنْظارِ القَوْمِ حَتّى دَنا شَبَحُ شَخْصٍ آخَرَ إلى حَيْثُ النّارُ الخابِيَةُ. وَلَمْ يَكُنْ ذٰلِكَ الشَّبَحُ سِوى الأَرْمَلَةِ المُبَجَّلَةِ الَّتي جاوَزَتْ طَوْرَ الشَّبابِ، السَّيِّدَةِ يوبرايت الَّتي كانَتْ تَقْطُنُ أَحَدَ الأَكْواخِ في بلومز–إند مَعَ ابْنَةِ شَقيقِ زَوْجِها الشّابَّةِ توماسين. وَكانَتْ تَبْدو عَلى تِلْكَ السَّيِّدَةِ المُتَقَدِّمَةِ المُسِنَّةِ أَماراتُ الجَلالِ وَقُوَّةِ الشَّخْصِيَّةِ. وَلا غَرْوَ فَقَدْ كانَتِ ابْنَةَ رَجُلِ دينٍ فَنَشَأَتْ أَحْسَنَ تَنْشِئَةٍ.

صاحَ فيرويبي: «يا لَلْمُصادَفَةِ! إنَّها السَّيِّدَةُ يوبرايت. سَيِّدَتي، مُنْذُ أَقَلَّ مِنْ عَشْرِ دَقائِقَ كانَ الصَّبّاغُ يَسْأَلُ عَنْكِ!»

«وَماذا كانَ يُريدُ؟»

«لَمْ يَقُلْ لَنا يا سَيِّدَتي، بَيْدَ أَنَّهُ انْطَلَقَ إلى مَنْزِلِكِ. وَإنّي لَيَسُرُّني أَنْ أَعْلَمَ بِعَوْدَةِ ابْنِكِ كليم إلى أَرْضِ الوَطَنِ.»

قالَتِ السَّيِّدَةُ يوبرايت: «شُكْرًا لَكَ، يا فيرويبي. مَعْذِرَةً إذْ لا بُدَّ لي مِنَ المُغادَرَةِ الآنَ، فَإنّي ذاهِبَةٌ في التَّوِّ إلى بَيْتِ توماسين الجَديدِ، فَإنَّها عائِدَةٌ اللَّيْلَةَ بِرُفْقَةِ زَوْجِها.»

«طابَتْ لَيْلَتُكِ، يا سَيِّدَتي. وَلَعَلَّكِ تَعْثُرينَ عَلى الصَّبّاغِ في طَريقِكِ.»

وَعِنْدَ سَفْحِ التَّلِّ سَلَكَتِ السَّيِّدَةُ يوبرايت الطَّريقَ المُؤَدِّيَةَ إلى فُنْدُقِ الكوايت ووِمان، مُعْتَقِدَةً أَنَّ ابْنَةَ أَخي زَوْجِها هُناكَ مَعَ زَوْجِها رامون ويلديف بَعْدَ أَنْ عُقِدَ قِرانُهُما في أَنْجِلبري. وَبَعْدَ قَليلٍ لَمَحَتِ الصَّبّاغَ مُقْتَرِبًا بِمِصْباحِهِ وَهُوَ يَقودُ عَرَبَتَهُ، فَبادَرَها قائِلًا: «إنَّهُ لَيَحْزُنُني أَنْ أَحْمِلَ إلَيْكِ أَنْباءً غَيْرَ سارَّةٍ عَنِ الآنِسَةِ توماسين!»

قالَتِ السَّيِّدَةُ يوبرايت في انْزِعاجٍ: «لٰكِنَّها عادَتْ إلى بَيْتِها لِتَوِّها بِرُفْقَةِ زَوْجِها!»

قالَ الصَّبّاغُ: «لَيْسَتْ في الكوايت ووِمان، يا سَيِّدَتي. لَمْ أَكُنْ أُحِبُّ أَنْ أَقولَها لَكِ، إنَّها هُنا في عَرَبَتي!»

صَرَخَتِ السَّيِّدَةُ يوبرايت، وَقَدْ أَخْفَتْ عَيْنَيْها بِكَفَّيْها قائِلَةً: «ماذا حَدَثَ لَها؟»



«لا أعْرِفُ على وَجْهِ التَّحْقيقِ، يا سَيِّدَتي، إلّا أنّي كُنْتُ على الطَّريقِ صَباحَ اليَوْمِ خارِجَ أنجلبري فَهَرْوَلَتْ إلَيَّ توماسين مُمْتَقِعَةَ اللَّوْنِ وَصَرَخَتْ قائِلَةً: «أغِثْني يا ديغوري فَإنّي أتَوَسَّلُ إلَيْكَ! إنّي في مِحْنَةٍ!» وَما لَبِثَتْ أنِ انْهارَتْ مَغْشِيًّا عَلَيْها. فَقَرَّرْتُ المَجيءَ بِها إلى المَنْزِلِ.» هُنا نَظَرَتِ السَّيِّدَةُ إلى قَلْبِ العَرَبَةِ فَأَلْفَتْ توماسين نائِمَةً فيها، وَما تَبَيَّنَتْ مَلامِحَها إلّا في نورِ المِصْباحِ، حَيْثُ رَأَتْ وَجْهًا حُلْوَ القَسَماتِ تَشِعُّ مِنْهُ البَراءَةُ، مُسْتَرْخِيًا في عُشٍّ مِنْ شَعْرٍ مُمَوَّجٍ كَسْتَنائِيِّ اللَّوْنِ، إلّا أنَّ القَلَقَ كانَ بادِيًا عَلى ذلِكَ المُحَيّا حَتّى في رَقْدَتِهِ. وَما لَبِثَتِ الفَتاةُ أنْ فَتَحَتْ عَيْنَيْها لِتَشْهَدَ عَلاماتِ الذُّهولِ بادِيَةً في عَيْنَيِ امْرَأَةِ عَمِّها. صَرَخَتِ السَّيِّدَةُ يوبرايت وَهِيَ تَميلُ عَلَيْها لِتُقَبِّلَها: «أوّاهُ! توماسين. توماسين! أوّاهُ! ابْنَتي العَزيزَةَ! ماذا جَرى؟»

فَقالَتِ الفَتاةُ: سَأُخْبِرُكِ بِجَميعِ التَّفاصيلِ، لكِنّي الآنَ أُفَضِّلُ قَطْعَ بَقِيَّةِ المَسافَةِ مَعَكِ سَيْرًا عَلى الأَقْدامِ، فَهِيَ لَيْسَتْ بِبَعيدَةٍ.» وَلَمّا كانَتا خارِجَ مَجالِ سَمْعِ الصَّبّاغِ الْتَفَتَتِ السَّيِّدَةُ يوبرايت إلى توماسين وَخاطَبَتْها بِلَهْجَةٍ حادَّةٍ لا تَخْلو مِنْ فَظاظَةٍ: «وَالآنَ، يا توماسين، ما مَعْنى هذا الشَّيْءِ المُشينِ؟»

أمّا توماسين التي قهرها صوت السؤال فقد حدّثت: «عمّتي، أنا لم أتزوّج. هذه هي مشكلتي! ورحل ويلديف عن رفضه عقد قراننا بسبب بعض اللوائح البسيطة.»

«أيّ لوائح؟»

«لا أدري يا عمّتي، إلّا أنّ ويلديف يستطيع أن يصحح كلّ شيء بنفسه.»

وختمت السيّدة يوبرايت الحوار بقولها: «حسنًا! سنذهب إلى الفندق لنتلقّى ذلك الإيضاح من ويلديف.» وفي تلك الأمسية أصرّت سيّدة يوبرايت على أن تصحبها توماسين إلى فندق كوايت وومان.



ودخلت السيدتان من الممر وفتحتا باب الردهة حيث كان ويلديش ينتظر، فنهض وأقبل عليهما ملاقيا مرحبا.

وقد تحدث ويلديش هذا برشاقة ساحرة، وقد هبت من أعطافه سمات معشوق النساء، فلم يلحظ الناظر إليه فروة من الشعر الغزير وحيدة تتبع الشمس مستديرة. لكن بضعة الأشبال كان رشيقا كأجسام الرياضيين. وسرعان ما أقبل على تومسين يسألها: «كيف غادرت المكان على هذه الصورة؟» ثم التفت إلى السيدة يوبريت وأضاف قائلا: «لقد كانت كلها مجرد غلطة، إن التصريح بالزواج لا يسري في انكلترا إلا في بدماوث. وقد فاتني أن ألاحظ هذا. فلتسامحني عن تلك الغلطة غير المقصودة.»

قالت السيدة يوبريت: «وإنه لعار أي عار في أسرتي، وهو ما لا يمكن نسيانه.»

وسأل ويلديش السيدة يوبريت أن تتركهما لحظة.

قالت تومسين متوسلة: «هذا الأمر يقتلني يا دامون. فماذا ترى؟ هل تنوي الاقتران بي؟»

«بلا شك، يا عزيزتي. فهذه مرة سهلة. فما علينا إلا أن نمضي إلى بدماوث يوم الاثنين القادم.»

قالت تومسين: «إنني لا ينبغي أن يتم هذا الأمر. فإني أستطيع العيش بدونك. بل إنها مرة عمتي هي التي فكرت فيه. وإنها لمزهوة فخورة وقد حط هذا من كرامتها. وهذا ما سوف يكون له وقع الصاعقة على ابن عمتي كليم عندما يعود إلى أرض الوطن!»

صاح ويلديش فيها: «أما أنا فقد وجهت إلي السيدة يوبريت إهانة بالغة عندما حالت بيننا وبين الزواج. وإن كنت امرأ فقط تملصت يداي من هذه الزيجة.»

فجأة حدثت جلبة خارج الفندق، إذ انبعث خمسون قرويا على الأقل وذلك ليحتفلوا بالعروسين حديثي الزواج، كما دار في حسبانهم.

واندفعت السيدة يوبريت إلى غرفة وهي تصيح: «تومسين، تومسين، ها هي ذي فضيحة كاملة. فلنهرب في الحال، هلمي!»

لكنّ ويلديف صاح: «لا! توقّفا! إنّي خارجٌ إليهمْ وسأُوجّهُهُمْ! توماسين، يا عزيزتي، لا تُقْدمي على أيّ عمل يُحْسَبُ عليْكِ. سوْفَ تروحُ. صدِّقيني! وسأذهبُ الآنَ إلى هؤلاء الحمْقى الطّائشين!» لكنّهُ قبْلَ أنْ يفعلَ، كانَ قد احْتشد في الممرّ جمْهورٌ منَ المُغنّين منْ بيْنهمْ تيموثي فيرويي وكريستيان كانتل وسام قاطعُ الشّجر.

وإذْ تبيّن لويلديف أنّ الموقف آخذٌ في التّأزّم، هُرِعَ فجاءَ بإبْريق من الجعة فقدّمهُ للزّائرين. وأحْدثَ هذا ردّ فعل سريعا، إذْ سرعانَ ما أحسّوا بالنّشْوة والبهْجة، وتمكّنت السّيّدةُ يوبرايت وتوماسين من التّسلّل خارجتيْن من الباب الخلْفيّ.

وقبْلَ أنْ يُغادرَ القرويّونَ المكانَ لَمَحوا لِسانَ النّار الّتي كانتْ مشْتعلةً في حديقة يوستاسيا وحدّقَ الضّابط البحْريّ المتقاعد. وغمْغم كريستيان كانتل بعصبيّة ظاهرة «ربّما كان لهذه النّار معنًى!»

وبعْد أنْ انْصرف المغنّون فرحين، خرج ويلديف ويمّم شطْرَ المرْج وهو ينْظُرُ أمامهُ إلى النّار الهادرة في دار يوستاسيا ويردّدُ لنفْسه: «أخْرُجُ تحْتَ السّماء ينبغي أنْ أذهبَ إليها.» ثمّ أغذّ المسير قبالة النّار كأنّهُ يُطيعُ أمْرَ استدعاء.

وعنْدما كان القرويّون يحْتفلون ويُغنّون في الفُنْدق خرجتْ يوستاسيا وأخذتْ طريقها إلى ريناوو، ثمّ وقفتْ بلا حراك. وكانتْ مُتلفّعةً بغطاء بدتْ فيها مهيبة طويلة القامة، وأخذتْ تتأمّلُ تلْك الوحْشة الّتي لفّت المكان. كانتْ كأنّها تُنْصتُ إلى الرّيح الّتي ما برحتْ تعْصفُ في نغمات شتّى.

بعْد أنْ هبطتْ يوستاسيا منْ فوْق الرّابية عادتْ إلى دار جدّها الواقعة في مكان مُنْعزل على مُرْتفع ميستوفر، والمُحاطة بالحدائق والحقول. وكان الحقْلُ الصّغيرُ قُرْبَ المنْزل غيْرَ ذي زرْع، وكان جانبٌ من الدّار محْميّا بدغل منْ شُجيرات الشّرْبين، وبالقرْب منْهُ بِرْكةٌ كبيرة.

وكان في الحديقة جوني نُنْسانتش الّذي يتولّى إيقاد النّار ليوستاسيا. فرفع رأسَهُ عنْدما دنتْ منْهُ يوستاسيا.



سألتْهُ مُستفسِرةً: «هَلْ سَمِعْتَ أَصْوَاتَ التَّصَدُّعِ؟»

«أَجَلْ يا آنِسَةُ. سَمِعْتُها مُنْذُ بُرْهَةٍ قَصيرَةٍ!»

«هٰذا يُنْبِئُ عَنْ قُرْبِ سُقوطِ المَطَرِ. فَيَحْسُنُ أَنْ تَذْهَبَ إِلى دارِكَ الآنَ.»

وَقَدْ كانَ جوني مُنْصَرِفًا سَمِعَ صَوْتًا آخَرَ. هُوَ صَوْتُ حَجَرٍ مَقْذوفٍ. وَكانَ هٰذا إِشارَةً إِلى حُضورِ وَيْنْدِيك. وَيَبْدو أَنَّ جوني قَدْ سَمِعَ الحِوارَ الَّذي دارَ بَيْنَهُمْ.

همس ويلديف: «لقد حرمتني الراحة. فقد عرفت أن إيقاد النار كان إشارة لي كدعوة بالحضور، كما فعلت في العام الماضي.»

«نعم، ولكن مرة أخرى ظهرت. لقد نفضت يدي منك يا ديمون. حتى سمعت أن زفافك لم يتم. ومن ثم حسبتك لا تزال على وفائك لي. ولهذا السبب قررت إشعال النار. وقد وثقت أنك سوف تدرك مدى تعلقي بتلك النار ولكن، خبرني يا ديمون، هل عدلت عن الزواج في اللحظة الأخيرة لأنك لا تستطيع التخلي عني وستظل تحبني إلى الأبد؟»

أجاب بشيء من الضيق: «نعم، ولا أفهم حضوري.» ثم أضاف: «أتعنين أنك ستريني مرة أخرى؟»

«فقط إذا اعترفت لي أن زواجك ألغي لأنك أحببتني أكثر مما تحبها!»

«إنما جئت طائعاً لاستدعائك. حسبي هذا!» أجاب ويلديف بذلك ثم انفتل.

وانصرف كذلك جوني مشدوهاً دون أن يلحظه أحد.

كانت يوستاسيا نقية نقاء الثوب الأبيض. وذات شعر فاحم أثيث وعينين ناعستين حالمتين بأسرار الليل. تذكّر الإنسان بآلهة من آلهة الإغريق. لكنها من حيث الأصالة كانت أقرب إلى أهل الأرض. ذلك أن أباها كان قائد فرقة موسيقى عسكرية في كورفو. وعندما توفي قام على رعاية طفلته المدللة الصغيرة جدها الذي كان قد تقاعد من الجيش وقتئذ وعاش في بيته السحيق الواقع بإغدون هيث. وقد حرص على أن تتلقى صغيرته قدراً ضئيلاً من التعليم.

لقد كرهت يوستاسيا إغدون هيث التي لم تكن تتفق مع طبعها، ومع ذلك فقد استطاعت أن تحيط نفسها بهالات الجلال والرومانسية. وكان قصدها الأسمى أن تُحَبّ إلى حد الجنون. وكانت تتوق، ولو بجدع الأنف، أن تلقى حباً. فقدر حب ملتهب تصطلي للتو خيرٌ من نور حب ضعيف يستمر سنوات.

كانت تعرف حق المعرفة أنها رأت في ويلديف مجرد سلوى تريحها من رتابة حياتها اليومية. ولو قيض لها رجل أكثر فتنة، لأنهت علاقتها بويلديف إلى الأبد.



رأى جوني بَسّاتش وهو عائدٌ إلى بيته، غرفةَ الصَّبّاغ ديغوري قين محمرّة. وكان مثلَ معظم الفتيان يرهبُه كثيراً. فلمّا سمع الصبّاغ صرخة جوني المكتومة رفع رأسه صائحاً: «مَنْ هناك؟»

ردّ عليه الآخر: «جوني بَسّاتش، يا سيّدي. كنتُ أتولّى إيقاد النار عند الآنسة يوستاسيا، وقد صرفتني عندما جاءها أحدُ السادة يزورها.»

«هل سمعتَ ما دار بينهما من حديث؟»

«أجل، يا سيّدي. قالت الآنسة يوستاسيا إنها تعتقد أنّه لم يقترن بالفتاةِ الأخرى لأنّه أحبّها هي أكثر من الأخرى وآثرها عليها.»

«وماذا قالَ لها ذلكَ السيّدُ؟»

«أكّدَ لها أنّهُ يُحبّها أكثر من الأخرى.»

صاح الصبّاغ: «هذا هو السرّ، أليس كذلك؟»

وبعد أن انصرف الصبيُّ أخرجَ ديغوري قين من جيبِ سترتِهِ رسالةً قديمةً باهتةً وقرأها باهتمامٍ بالغٍ، وكانت مؤرّخةً بتاريخٍ سابقٍ عن ذلك اليوم بعامين:

«عزيزي ديغوري قين.

أنا لا أستطيعُ الاقتران بك أو السّماح لك بأنْ تدعوني حبيبتك. إنّي أحبّك ودائماً كنتُ أضعك في مكانةٍ تاليةٍ لابن عمّي كليم. وليس معنى ذلك أنّ شخصاً آخر يشغلني، إنّما امرأةُ عمّي لن توافقَ أبداً على مثل ذلك الزواج. تريدني أن أنظر إلى أعلى وليس لمجرّد فلاحٍ بسيطٍ يصنعُ منتجات الألبان. وأن أقترن برجلٍ ذي حرفةٍ سوف تظلّ دائماً في خاطري الرّجل النّبيل

صديقتك المخلصة توماسين يوبريت.»

منذ تلقّى ديغوري قين تلك الرّسالة لم يرَ توماسين حتّى ذلك اليوم الّذي التقطها فيه من وسط الطّريق عقب فشل زواجها. وفي خيبة أملٍ كان قد هجر مهنة صناعةِ الألبان واستقرّ على حرفةٍ أقلّ مكانةً، ومردودها قليلٌ، هي حرفةُ الصّباغة





وقلقه ولهفته على توماسين رأى من واجبه أن يتم بكل ما يجري بين ويلديف ويوستاسيا، وذلك بالمداومة على مراقبة ريسارو.

وفي إحدى الأماسي لمحهما جالسين معاً على الهضبة الصغيرة. فراح يزحف خفية إلى موقع أفضل يمكنه فيه أن يسترق السمع. لعله يدرك شيئاً مما يدور.

قالت يوستاسيا: «إليك عني وتزوج بتوماسين. فإنها أقرب إلى مكانتك الاجتماعية.»

«إني لا أستطيع التخلي عنك، وفي الوقت نفسه لا أحب أن أخدش كرامتها، فإنها لفتاة طيبة سليمة الطوية.»

ردت عليه بقولها: «حسن إذ لم تكن تحبها حقيقة فمن قبيل الرحمة أن تدعها وشأنها، فهذا هو الطريق الأمثل. ولكن حرني أتحبني حقاً؟»

«أحبك ولا أحبك!»



أجابت يوستاسيا وهي واثقة بنفسها: «يمكنك أن تبتعد عن طريقي، بيد أنك لن تستطيع نسياني وستظل على حبك لي طول حياتك.»

«وإني لكذلك. يقيناً إني لكذلك.»

قال وينسبق ذلك في غير قليل من القلق. ثم مضى يقول: «إني أكره الوحشة التي تسود إغدون وإنك أيضاً لكذلك. لماذا إذن نظل هنا؟ ألا تصحبينني إلى أمريكا؟»

قالت وهي تتمشى أسفل الهضبة: «مسألة فيها نظر. أعطني مهلة للتفكير.»

فكر ديغوري فيما سمعه منهما، وأحس بالإشفاق على توماسين، وردد في نفسه: «ماذا أفعل؟ ماذا أستطيع أن أفعل؟ أجل. لا بد أن أقابل يوستاسيا في بيتها!»

وما إن أسفر صباح اليوم التالي حتى استجمع ديغوري قوى رباطة جأشه كي يذهب لمقابلة يوستاسيا في، ومن حسن حظه أنها وقفت على لقائه

فبادره ديعوري قبل بقوله: «الذي أعلمه أنها غير سارة عن السيد ويلديف. يا سيدتي إنه من المحتمل ألا يتم زواجه بتوماسين يوربرايت. وإخالك الشخص الوحيد في هذه الناحية الذي يمكنه مد يد العون.»

بقيت يوستاسيا ساكنة لا تنبس، ومن ثم أحس ديعوري أن من الخير أن يكون أكثر وضوحاً، فقال: «يا آنستي الفتية. إني على علم تام بما يجري بينك وبين السيد ويلديف وقد سمعت حديثكما على تل ريساروز الليلة الماضية. وليس ثمة غيرك من يقف بين ويلديف وتوماسين. وإنه لمن الأفضل أن تبتعدي عنه!»

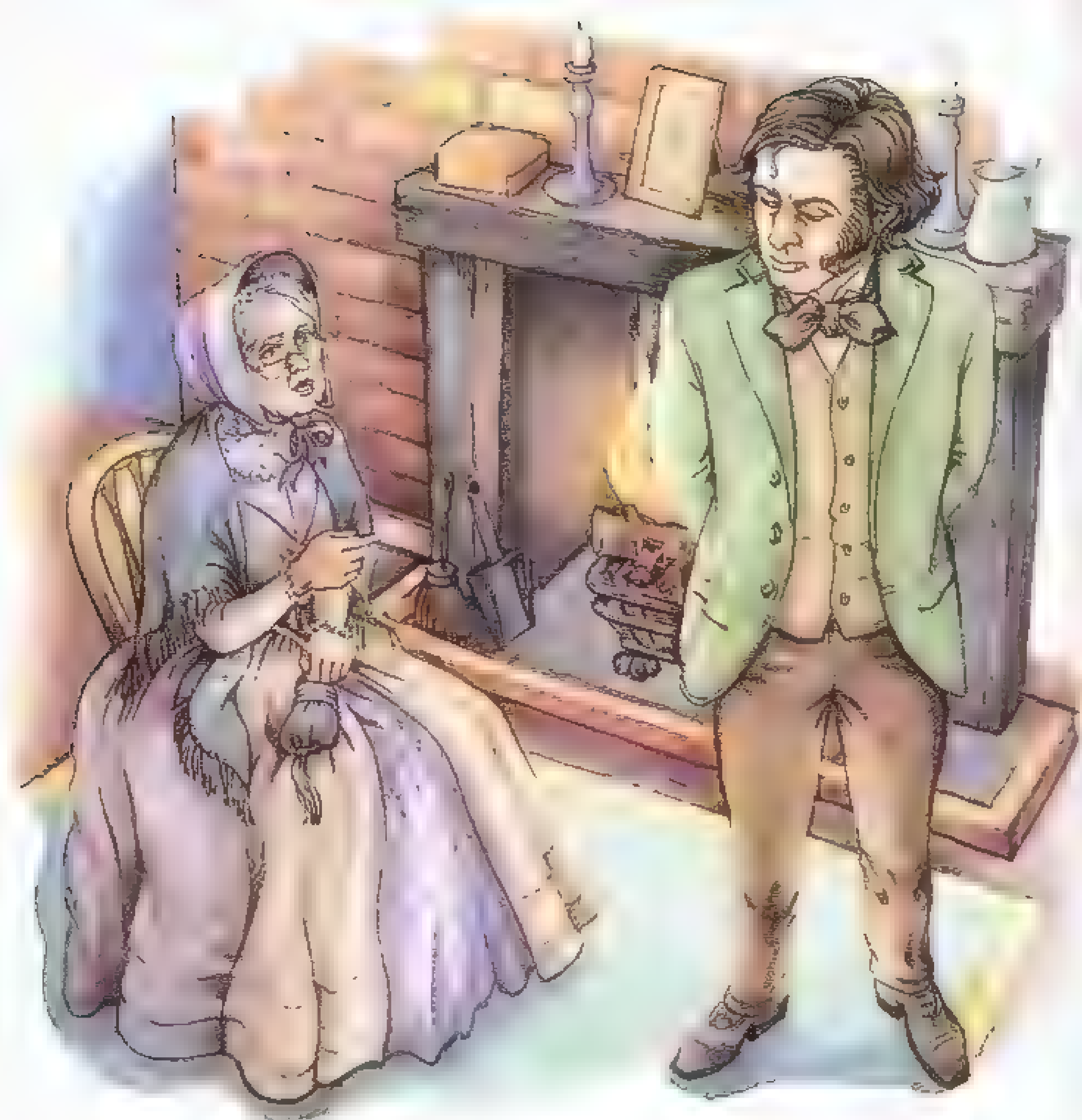
أما يوستاسيا فقد ارتجفت شفتاها، وامتقع لونها وراحت تغمغم: «لست على ما تراه، ولن أستطيع الاستماع إليك أكثر من ذلك. أرجوك، دعني وشأني!»

أطاعها الصباغ ومضى لحال سبيله. وبينما كانت يوستاسيا تدلف إلى الدار أنشأت تردد لنفسها: «كلا، لن أبتعد عنه. لا، لن يكون ذلك أبداً!»

قرر الصباغ، الذي كان مصراً على مساعدة توماسين، أن يتصل بالسيدة يوربرايت، فما إن لمحها على الشرفة مولية شطر فندق «الكوايت وومان» حتى وجدها فرصة سانحة، ووجه إليها الخطاب التالي في احترام بالغ: «سيدتي يوربرايت، بي قلق على الآنسة توماسين، وأريد أن تعرفي أنني سأكون جد سعيد إذا ما تشرفت بالاقتران بها وأنا لست فقيراً كما يتراءى لك. بل إنني لست أفقر من ويلديف.»

قالت السيدة يوربرايت بأدب جم: «أشكر لك اهتمامك بتوماسين. لكنها قالت مرات عديدة إنها ستقترن بالسيد ويلديف الرجل الذي أحبته حقيقة. لا يوجد عندي أكثر من هذا الجواب يومئذ». وولت السيدة يوربرايت ميممة شطر الفندق، وقد شجعها الطلب الذي قدمه لها الصباغ، ورفع من معنوياتها

كان ويلديف متواجداً في «الكوايت وومان»، فأوصل ضيفته، التي لم تضيع دقيقة واحدة، إلى الردهة العامة فقالت: «لعلك لا تدري أن رجلاً آخر قد ظهر في الميدان ليقترن بتوماسين.»



قالَ وِينْدِيف: «حَسَنٌ إذا رَغِبْتَ فيه. ولكِنْ أنّى عَرَفْتِ أنَّهُ سَيَقْبَلُهُ فِعْلًا؟»

«إنَّهُ لَكَذِبٌ! وإنَّ عَلَيْكَ إعْلامَها بِأنَّكَ سَتَنْسَحِبُ مِنْ تِلْكَ المُباراةِ. ومِنْ ثَمَّ سَيَجُرُّهُ خَدْشُ كِبْرِيائِهِ إلى قَبُولِهِ.»

صاحَ السَّيِّدُ وِينْدِيف بِشَيْءٍ مِنَ الحَيْرَةِ: «حَسَنٌ. سَأَدْرُسُ هذِهِ المَسْأَلَةَ، وأَرُدُّ عَلَيْكِ في غُضُونِ يَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ.»

وانْسَحَبَتِ السَّيِّدَةُ بُورِيت راضِيَةً بِحِيلَتِها البارِعَةِ

في تلك الليلة قام ويلديف بزيارة خاطفة ليوستاسيا، وصرّح لها في لهفة وقلق قائلًا «لقد تطوّرت الأمور تطوّرًا خطيرًا. يجب الآن أن أصل إلى قرار، فأولًا وقبل كل شيء أتوافقين على ترك هذا المكان إلى الأبد، وتصحبيني إلى خارج البلاد؟»

سألته يوستاسيا: «ماذا حدث فجأة هكذا؟!»

أجاب: «أخبرتني السيدة يوبرايت أنها تودّ أن أترك توماسين. لأن رجلًا آخر يتمنى الاقتران بها، ولا أحسبه إلّا ديغوري فين!»

صرخت فيه: «الآن فهمت! أنت تريد أن تتزوجني لأنك لا تستطيع الاقتران بها!»

وأدركت أنها فازت بويلديف. لكنها أحست بانتصار مهين. إذ إنها ليست سوى بديل مؤقت لمحبّه المدلّه الولهان!

وراح ويلديف يضيّق الخناق عليها حتى تصل إلى قرار حاسم، وناشدته أن يعطيها مهلة للتفكير، وقالت: «وبفرض أن توماسين تريد التخلص منك، فلن أنسى ذلك بسرعة!» فأجابها ويلديف في شيء من الضيق «لا عليك، فسنتقابل في رينبارو يوم الاثنين القادم في نفس الموعد ومكان اللقاء حتى نتقابل.»

كانت ثمرة دبلوماسية السيدة يوبرايت جديرة بالملاحظة حقًّا، رغم أن ذلك كان مخالفًا لما قد توقعته. وعلى ما يبدو كان لتلك الدبلوماسية وقعها على ويلديف ولكن تأثيرها على يوستاسيا كان أكثر، ذلك أن حبيبها لم يعد ذلك الرجل المثير الذي يستحق أن يُقتل المرء من أجله.

عادت يوستاسيا إلى دارها تعيسة مهمومة، إلا أن ذلك الخبر الذي نقله إليها جدّها قد شدّ من معنوياتها

«لا يخالك، يا يوستاسيا. إلا عسة بمقدم الشاب كليم يوبرايت الأسبوع القادم، ليقضي عطلة رأس السنة مع والدته، وهو شاب وسيم عاش في باريس مدينة الزخرف والضياء والفتنة.»

أما يوستاسيا فقد بدأ قلبها يخفق خفقانًا، ترى أيمكن أن تتحقق الأحلام؟



في حديقة فسيحة تجري كاتي همفري وسام. عملا الأرض المخضّبة. يكوّمان كل الحشب ويحرقان حطب النبتة، وكانا يتحدثان. وإذ كانت النافذة مفتوحة فقد بلغ صوتهما مسامع يوستاشيا. وقد أثار حديثهما فتكلفت عنه منصتة.

قال همفري: نعم. كان يعيش في باريس. والناس تقول إنه تاجر خشب وماس ثري. وإنه مدمن الرقص والضلال تماماً مثل الآنسة. فرأسها مفعم بالكتب والأفكار الغريبة كتلك. وهي وكليم يمكن أن يكونا ثنائياً متّفقاً.

قال الآخر: أصبحت كلمة الحقيقة إن أسرة كليم كريمة تماماً مثل أسرتها، وإنه يشغلني أن أراهما زوجين. حقاً. إنه يشغلني ذلك!

عندما وصل كليم في الموعد المحدد إلى منزل والدته في بلومز إند حاملاً عدداً كبيراً من الحقائب. أخذت يوستاشيا رغبة عارمة في أن تراه وتتحدث معه.

وراحت تتمشى في الحقول لساعات متتالية عبر الأرض المعشبة في اتجاه منزل السيدة يوبرايت علّها تلقاه. لكنها فشلت في إخراج أي تصاميم لذلك الشاب الغامض، الآتي توّاً من باريس. وأمست عنه خليط عميق في رأسها بالمهنة والتصورات الرومانسية. ومهما يكن من أمر فسرعان ما راحت تخطط للقائه.

وفي الأسبوع السابق لليلة رأس السنة، كان ثمة تقليد قديم يتبع في إيجدون. وهو عرض مسرحية سان جورج. وهي مسرحية صامتة يقوم بتمثيلها الشبان.

وكانت تلك المسرحية تصور الصراع بين الناس، وتتضمن خليطاً غريباً من الشخصيات، مثل سان جورج والفارس التركي والطبيب. وكانت تمثل بعناية مجهزة ومحبوكة، والشعر غير موزون، والملابس في غاية الأناقة وتتنوع عروضها بين أرقى أنواع الدراما وأخف ضروب الكوميديا.

وكانت البروفات تجري دائماً في حظيرة ماشية بمنزل القبطان فاي. وفي خلال ذلك علمت يوستاشيا من تشارلي وهو أحد الممثلين بها أن العرض الأول سيكون في دار السيدة يوبرايت. احتفالاً بعودة كليم. وأدركت يوستاشيا أنها بملابسها الممثل تستطيع الدخول إلى دار السيدة يوبرايت ورؤية فتى أحلامها كليم.





هكذا أستحقت يوستاسيا إعجاب شارلي الشديد بها باستعارة سترته. وبذلك يسمح لها بالانخراط في زمرة الممثلين.

وكان العرض في دار السيدة يوبرايت بهيًّا يدعو إلى الإعجاب. واستطاعت يوستاسيا أن تدرس كليم عن كثب، آمنة في ملبسها المستعار. أخيرًا دُعي الممثلون لتناول طعام العشاء، لكن يوستاسيا لم تغامر بخلع خوذتها لتأكل، بيد أنها تمكنت من تناول بعض الشراب دون أن تفصح عن هويتها.

وقد أفزعها الحذر اكتشافها أن كليم يوبرايت بدا كأنه يوليها اهتمامًا خاصًا. وأخيرًا نهض ووقف بجوارها بعض الوقت. ثم قال لها: «يخالجني شيءٌ غريب، إذ يُخيّل إليّ أنك فتاة!»

قالت مقرّة بذلك: «وإنّي لكذلك!»

قال كليم: «وفيم اشتراكك في مسرحية صامتة؟ الفتيات قلما يفعلن ذلك.»

أجابت: «طلبًا للإثارة ولأنفض عن نفسي غبار شعور بالملل.»

ولم يعقّب كليم وإنما ابتسم واستأذنها في الانصراف.

وشعرت يوستاسيا بسرور بالغ وارتفاع في معنويتها. فها قد أدت الحيلة حقًّا! لكنها وهي في طريقها إلى دارها في تلك الليلة ظلت تردد بانفعال: «ليتني تركت دامون يتزوّج توماسين! لولاي لكان ذلك قد تمّ.»

وتحركت يوستاسيا بسرعة. في صبيحة اليوم التالي انطلقت تنشد ديغوري فين في صومعته، وإذ تبيّن لها عظيم اهتمامه بتوماسين طلبت منه أن يحمل رسالة إلى ويلديف. وقالت له: «يجب أن تقرأ ما كتبت. لقد فعلت ما أمرتني أنت أن أفعل.»

وفي شيءٍ من الحيرة قطب دعبوري في الطرف وقال للسائق

إلى السيد ويلديف

بعد شيءٍ من الروية والتفكير تذكّر أنه لن يكون بينه أي ارتياح من أي نوع. لقد خدعني وحسّني فتزوّجت بتوماسين وأنت تحصل وتدّعي وتتظاهر أنّك تحبّني. وما كان أحري أن أجد هذه الحظوة حتى سمعت تحضنكم

يوستاشيا

من المحتمل أن ويلديف قد صادفه هذا الطراد مثل الأسلوب الجاف المقتضب من يوستاشيا وإذ قبل هذا الأمر على علاته، وكان الأمر محتومًا. فقد صحّت عزيمته على المضيّ إلى توماسين والاقتراب بها. محاولًا أن يجعل من هزيمته تلك انتصارًا، من خلال توجيهه الصفعة الذكية لها: «حسنًا يا سيدتي أنت الآن خارج اللعبة. لقد صفعت بأحقيّتي في الزواج بتوماسين، تصف مسؤولية هذه الصفعة!

ثم تكبد المسرحية الصامتة تأتي إلى نهايتها حتى غادر كليم المكان ومضى لزيارة أحبائه وقضاء بضعة أيام معهم.

في تلك الفترة نفسها قام ويلديف بزيارة السيدة يوبرايت. وصارحها وتوماسين بأنه قد وضع الترتيبات اللازمة لإتمام الزواج. وأن يتمّ الزواج في غضون يومين. وأكّد لهما أنه لن يطرأ أي تغيير أو خطأ على هذا الموعد المضروب.

وفي الموعد المحدد أصرّت توماسين على الذهاب وحدها. مما آلم السيدة يوبرايت أشدّ الإيلام. ولكن لم يمض طويل وقت على ذلك حتى كان في حجرة السيدة يوبرايت شيء آخر تتطلب التفكير. ذلك أنه ما كادت توماسين تذهب حتى عاد كليم في حالة بادية من الاضطراب. وكان كليم قد سمع بما جرى لتوماسين من إهانة على يد ويلديف. وعزم على الوصول إلى جليّة الأمر وكشف المخبأ. لقد كان غضبه بلا حدود عندما أخبرته أمه أنه في تلك اللحظة كان يجري زفاف توماسين إلى ويلديف دون حضور أحدٍ من أفراد الأسرة.

صرخ كليم: أمي. ما معنى أن تخبريني بهذا من قبل؟

لَمْ أَشَأْ أَنْ أُزْعِجَكَ يا كْليم، ذٰلِكَ لِعِلْمي كَمْ كُنْتَ دائِمًا كَثيفَ الوَساوِسِ، وَأَنْتَ لا تَتَصَوَّرُ كَمْ عانَيْتُ طَوالَ هٰذِهِ الأَسابيعِ السَّبْعَةِ الأَخيرَةِ!»

«وَلٰكِنْ مِنَ العَدْلِ أَنْ نَضَعَها في هٰذا المَأْزِقِ ثانِيَةً؟ الرَّجُلُ مَشْكوكٌ في نِيّاتِهِ. أَتَمَنّى أَنْ يُخْفِقَ في الحُضورِ في المَوْعِدِ. إِنّي أَمْضي إِلى هُناكَ حَتّى أَكونَ بِجانِبِها.»

عَلى أَنَّهُ قَبْلَ أَنْ يَبْرَحَ أَقْبَلَ ديغوري عَلَيْهِم. فَاسْتَدْرَكَتْهُ السَّيِّدَةُ يوبريت سائِلَةً هَلْ تَمَّ زَواجُها؟» فَأَجابَ: «أَجَلْ، يا سَيِّدَتي. لَقَدْ شَهِدْتُ كُلَّ شَيْءٍ.»

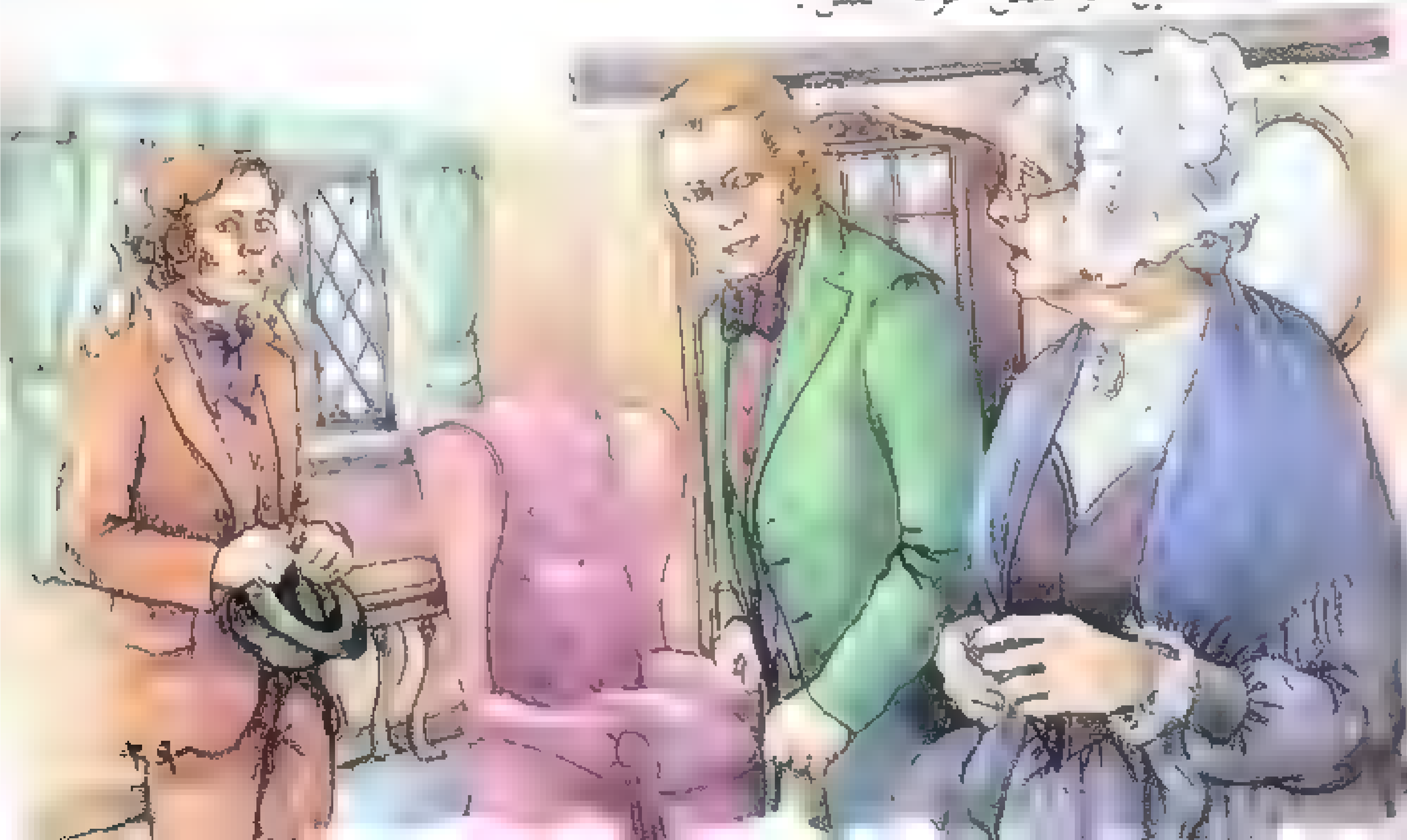
سَأَلَتْهُ السَّيِّدَةُ يوبريت: «وَهَلْ حَضَرَ الزِّفافَ أَحَدٌ؟»

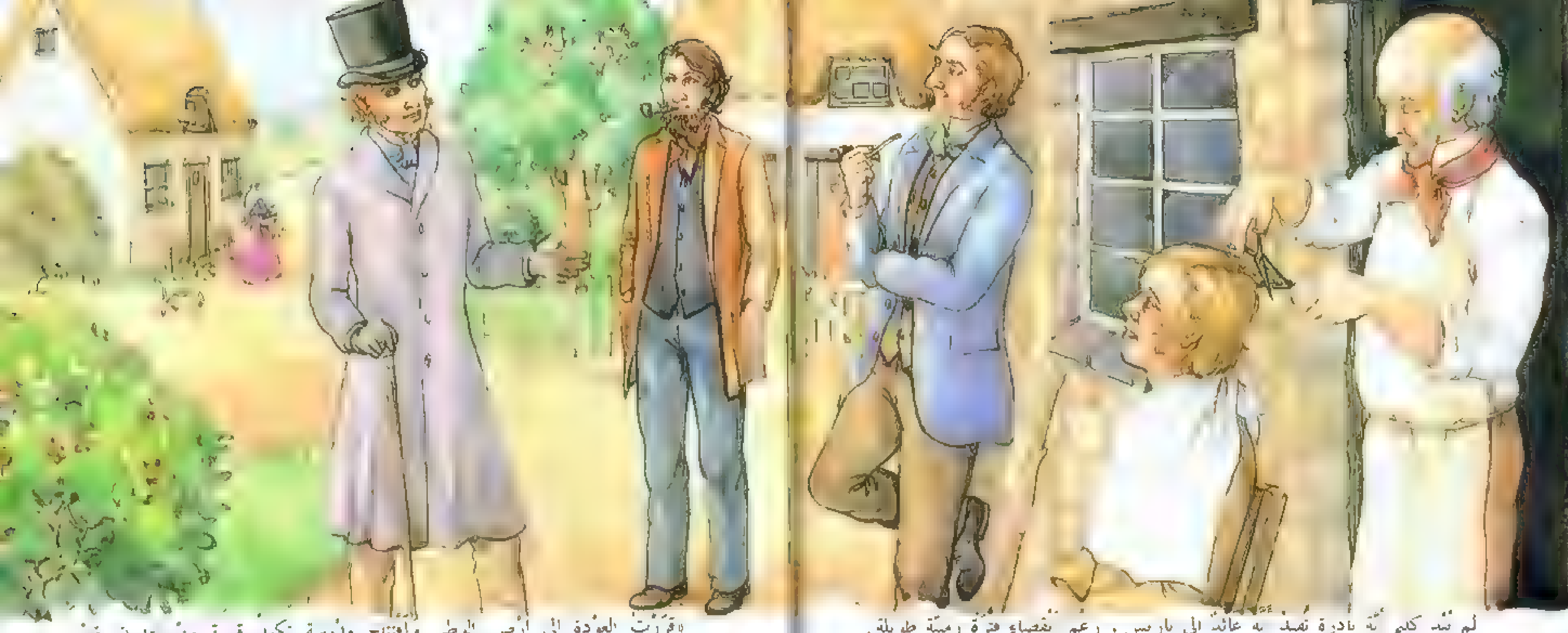
قالَ ديغوري وَقَدْ بَدا عَلَيْهِ بَعْضُ الضّيقِ: «الآنِسَةُ ڤي.»

اِسْتَفْسَرَ كْليم: «وَمَنْ هِيَ الآنِسَةُ ڤي؟»

أَجابَتِ السَّيِّدَةُ يوبريت: «حَفيدَةُ الكابْتِن ڤي. تَعيشُ في ميستوفر ناب. وَهِيَ فَتاةٌ مَغْرورَةٌ جاءَتْ مِنْ بَدْماوث وَلَمْ تُصادِفْ هَوًى في نَفْسي.»

بَعْدَ أَنْ وَدَّعَ الصَّبّاغُ السَّيِّدَةَ يوبريت وَكْليم، غادَرَ تِلْكَ النّاحِيَةَ وَلَمْ يَعُدْ أَحَدٌ يَراهُ في إِغْدون هيث لِعِدَّةِ أَشْهُرٍ. وَكانَ كُلُّ ما تَبَقّى مِنْ مَسْكَنِهِ البَسيطِ في الوادي الصَّغيرِ بَيْنَ نَباتِ العُلَّيْقِ هُوَ بَعْضُ حُزَمِ القَشِّ.





لم يَبْدِ كليم أيّةَ بادرةٍ تفيد أنّه عائدٌ إلى باريس، رغم انقضاء فترةٍ زمنيّةٍ طويلة. وَمِنْ ثَمَّ فَقَدْ بات أَهْلُ البَلْدَةِ حيارى. وكانَ كليم على عِلْمٍ بهذهِ الحيْرة.

في صَبيحَةِ أَحَدِ أَيّامِ الآحادِ، كان جَمْعٌ مِنْهُمْ أَمامَ صالونِ الحلّاقِ، فدَنا مِنْهُمْ صائحًا: «ولَآن، يا قومُ، أما كفاكُمْ ثَرْثَرَةً عَنّي؟»

اعترف تيموثي قائلًا: «إنّنا لا نفهمُ لماذا تتعلّقُ بهذهِ الجهةِ وقدْ بنيتَ لكَ اسْمًا في عالَمِ تجارةِ الحُلِيِّ؟ هذهِ حقيقةٌ ما دارَ بيننا.»

قالَ كليم: «حسنٌ! إنّي مُخبِرُكُمْ. وإنّهُ لَيَسُرُّني أنْ أُتيحَتْ لي هذهِ المُناسَبةُ لِكَيْ أُخبِرَكُمْ بِأنّي أَقَلُّ تَفاهَةً هُنا مِنّي في أيِّ مَكانٍ آخَرَ. وَقَدْ أَحْسَسْتُ مُؤخّرًا أنَّ عَمَلي في باريس كانَ أَكْثَرَ تَفاهَةً وَأَشَدَّ غُرورًا، وَأَقْرَبَ إلى روحِ الإناثِ بالنِّسبَةِ لِأيِّ رَجُلٍ كانَ! وَهٰذا ما أدّى بي إلى هٰذا القَرارِ الحاسِمِ.»

ونظَرَ سُكّانُ المَرْجِ بَعْضُهُمْ إلى بعْضٍ في حيْرةٍ شديدةٍ، وتابع كليم:

«قرّرْتُ العوْدةَ إلى أرضِ الوطنِ وافتتاحَ مدْرسةٍ تكونُ قريبةً مِنْ مَعْدِنِ مَقْدِرِ المُسْتَطاعِ. لكنّهُ كانَ لِزامًا عليَّ أنْ أدْرُسَ أوّلًا وأتعمّقَ في الدَّرْسِ لِلْحصولِ على المُؤهّلاتِ اللّازمَةِ. وبِهٰذه الطّريقةِ يكونُ في مَقْدوري تقديمُ أعظَمِ خدْمةٍ لجيراني.»

وفي غمْرةِ السّكونِ الّذي أعقَبَ ذلكَ التّصريحَ مضى كليم في سيْرِه عبْرَ المَرْجِ.

قالَ فيروبي وهُوَ يَهُزُّ رأسَهُ: «لنْ يستطيعَ تنفيذَ ذلكَ.»

أمّا همفري فقدْ علّقَ: «إنّها فِكْرةٌ نبيلةٌ. ولكِنْ ليْتَهُ يهتمُّ بأموره.»

كانَ المثَلُ الأعلى لكليم في هذهِ الحياةِ أنْ يربطَ بيْنَ الحياةِ البسيطةِ والفكْرِ الرّفيعِ. لَقَدْ أحبَّ المَرْجَ، فقدْ نشأ فيهِ وتفتّحتْ عيْناهُ عليْهِ، وكانتْ لُعَبُهُ مِنَ الأدواتِ الحجريّةِ الّتي عثرَ عليْها فيهِ، وكانَتْ أيضًا مِنْ كُئوسِ الأزْهارِ الأرْجوانيّةِ والنّباتاتِ الصّفْراءِ. أمّا بالنِّسبَةِ ليوستاسيا فقدْ كانَ المَرْجُ وكُلُّ ما دلَّ عليْهِ موْضِعَ كَراهيَةٍ ومحطَّ بغضاءَ، وذلكَ على العَكْسِ مِنْ كليم الّذي كانَ يَراهُ رمْزًا للحُبِّ.

عقد كليم العزم يومًا على أنْ يُطلِع أمّه على خطّته. فقال: «لستُ عائدًا إلى باريس يا أمّي. فإنّي أكره ما كنتُ أتولّى من عملٍ هناك. إنّه تافه! وأنا أريد أنْ أنهض بعملٍ ذي قيمة هو أنْ أكون مدرّسًا أُعلّم الفقراء والجهّال الذين جعلهم المجتمع دَبْرَ أذنه.»

قالت له أمّه وهي تحاوره على مرأى الدموع: «هل يمكن أنْ تفعل هذا بعد الذي بذلتُ من عناءٍ من أجل استهلالٍ طيّبٍ لك في هذه الحياة؟ إنّ تخيّلاتك هذه سوف تكون سبب دمارك وسوء حالك.»

قال: «ما باليد حيلة. إنّي لأُبغض عيشي المُراق في باريس.»

وقطع حديثهما فجأةً دخولُ كريستيان كانتل أصغر أبناء غراندفر كانتل، فسألته السيّدة يوبرايت: «ماذا وراءك، يا كريستيان؟»

قال: «يا سيّدتي، في صبيحة هذا اليوم، ونحن أثناء الصلاة، بدت صرخةٌ مروّعة، واتّضح أنّ سوزان نَنْساش نخست الآنسة فاي بإبرة جوارب طويلة، على مألوفِ عادتها في الوعيد.»

كان ذلك تهديدًا من سوزان ليوستاشيا فاي، كي تضع حدًّا لفتنتها ابنها الصغير جوني نَنْساتْش وأخواته ومحاولة إغوائهم. الأمر الذي تكرّر ودام.

فما كان جواب السيّدة يوبرايت إلّا قولها: «يا للهول!»

وما انقضتْ سوى أيّام على ذلك، حتّى توجّه كليم مدفوعًا بغريزة حبّ الاستطلاع إلى دار الضابط فاي، ورافقته بعض القرويّين الذين كانوا يُصلحون بئر الحديقة. وقد عزم على لقاء تلك السيّدة الساحرة التي حضرتْ دون سابق إنذار حفلة عُرس توماسين.

وبينما كان العمّال منهمكين في عملهم قدّم كليم نفسه للسيّدة الفاتنة التي كانتْ واقفة على مقربةٍ منه. وكان تيموثي فيرويي يساعده في تضميد يدها التي كانتْ قد جُرحتْ من حبل البئر عندما انزلق من يدها وهي تجرّب إنزال الدلو في البئر.



قالتْ يوسْتاسْيا: «هٰذِه هي الإصابةُ الثّانِيَةُ لي خِلالَ هٰذا الأُسْبوع ... لَيْسَ من المُفيدِ اتِّخاذُ إجْراءٍ ضِدَّ امْرأةٍ قَرَوِيّةٍ جاهِلَةٍ مِثْلِ سوزان نَنْساتْش!»

قال كليم: «لقدْ عُدْتُ لأُزيلَ بُيوتَ العَنْكَبوتِ والتُّرَّهاتِ والأباطيلَ. أوَ تُحِبّينَ أنْ تُساعديني في تَعْليمِهِمْ؟»

أجابتْ: «يؤسِفُني أنْ لَيْس بي أيُّ حماسٍ في هذا الموْضوع، فإنّي لا أُحِبُّ مُواطنيَّ كثيرًا بل أراني أحْيانًا أُبْغِضُهُمْ!»

سألها: «أتَشْعُرين بالوحْشَةِ والعُزْلَةِ هُنا في إغْدون؟»

قالتْ يوسْتاسْيا: «أجلْ. ولا أُطيقُ المرْج.»

عاد يسْألُها: «أتقولين ذلك عنْ صِدْقٍ؟ عِنْدي أنّ المرْجَ مُبْهِجٌ للغايَةِ، وهُوَ يُقوّي الإنْسانَ ويُسرّي عنْهُ. إنّهُ عِنْدي بالقِياسِ إلى حَياةِ الغُرورِ في باريس الجَنَّةُ بِعَيْنِها.»

فعلّقتْ: «أمّا أنا فإخالُ شوارعَ باريس العَريضَةَ أقْرَبَ لِقَلْبي مِنْ هنا هُنا!»

أحسَّ كليم في ذلِكَ اليَوْمِ وهُوَ في طَريقِهِ إلى منْزِله أنَّ خُطْتَهُ في طَريقِها للنّجاح، فقدْ دخلتْ فيها فتاةٌ جَميلَةٌ، ومِنْ تِلْكَ الآوِنَةِ ضاعف كليم اهْتِمامَهُ بدِراسته، فكان يسْتذْكِرُ عاكِفًا النّهارَ بطولِه، إلّا أنّهُ كان يخْرُجُ للتّنزُّه على المرْجِ ساعة الأصيل.

وفي إحْدى الأُمْسِيّاتِ وصل كليم إلى داره متأخرًا فَأَلْفى أُمَّهُ تَنْتَظِرُهُ في قَلَقٍ. فقال: «كُنْتُ أسْتَمْتِعُ بِنُزْهَةٍ طويلةٍ على المرْج.» فسألتْهُ: «وهلْ قابلْتَ يوسْتاسْيا هُناك؟»

أجاب: «أجلْ، قابلتُها الليْلَةَ، لكنَّ ذٰلِكَ لَمْ يَكُنْ بناءً على مُواعَدَةٍ.»

قالتْ أُمُّهُ في تهكُّم: «لا. إنّ مِثْلَ هٰذه المُقابلاتِ لا تكونُ كذلِكَ!»

ومرّتِ الشُّهورُ وازْداد هُيامُ كليم بيوسْتاسْيا. وفي لَيْلةٍ مِنْ لَيالي بواكير فصْلِ الرّبيع عاد مِنْ إحْدى لِقاءاتِهِ الّتي أمْستْ مُنْتظِمَةً بيْنَهُ وبيْن يوسْتاسْيا، وعقب العشاء قالتْ أُمُّهُ: «إنّي لمُنْزعِجةٌ يا بُنيّ كليم، إنّكَ لتُمْضي حياتك هُنا وما ذاك إلّا بسببها. إنّها امْرأةٌ كسْلى شرهةٌ، فلماذا تسْعى إلى رَبْطِ حياتك بامْرأة؟»



ثُمَّ إِنَّها عَمَلِيَّةٌ. إِذا أَنْشَأْتُ مَدْرَسَةً سَأَحْتاجُ لِمُساعَدَةِ امْرَأَةٍ مُتَعَلِّمَةٍ.»

صَرَخَتْ فيهِ أُمُّهُ: «ماذا؟ أَتَعْني حَقيقَةً أَنَّكَ تُريدُ الاقْتِرانَ بِها؟»

وَما إِنْ سَمِعَ هٰذِهِ الكَلِماتِ حَتّى خَرَجَ مِنَ الغُرْفَةِ.

أَمْضى كليم اليَوْمَ التّالي مُعَذَّبًا حائِرًا. وَقَدْ أَحَسَّ أَنَّ عَلَيْهِ اتِّخاذَ قَرارٍ حاسِمٍ.

وَلِذٰلِكَ تَوَجَّهَ في المَساءِ لِمُقابَلَةِ يوسْتاسيا.



ردَّ كليم يوستاسيا قائلاً: «ليسَ مِنَ المَعْقول أنْ نَسيرَ هكَذا. عَلَيْنا أنْ نتزوّج»

قالَتْ يوستاسيا: «يَجِبُ أنْ أُفكِّرَ... حَدِّثْني عَن باريس.»

«لَشَدَّ ما أكْرَهُ التَّحَدُّثَ عَنْ باريس!»

«لا تَنْسَ لُطفَكَ بي، إنّي أُحِبُّكَ رغمَ اشتياقي للحياة في باريس.»

وبعْدَ أنْ افترقَ الحبيبان تلكَ اللّيلة، اتّجه كليم سريعًا إلى داره حيرانَ مُشتّتَ الرّوحِ، يُسائِلُ نَفْسَهُ كَيْفَ يُوفّقُ بيْن المطالب المتعارضة لأُمّه ويوستاسيا، وبيْن خططه هو.

ولَحِقَ الرّبيعُ بالشّتاء، وسرعان ما راح الصّيفُ يقْرعُ الأبواب. وفي أحد أيّام شهر مايو عادت السّيدة يوبرايت بعْد الظُّهر منْ زيارة لتوماسين في الكوايت وومان، ودخلتْ على ابنها فقطعتْ عليه مُذاكرتهُ ثُمَّ دخلتْ في الموْضوع مُباشرة

«أشاعَ الكاتبُ فوي في الفندق أنّكَ ويوستاسيا قد تمّتْ خِطبتُكما.»

«نعمْ، يا أمي. لكنّنا لنْ نتزوّجَ قريبًا.»

«وتريدُ أنْ تصطحبَها إلى باريس على حدِّ ظنّي؟»

«كلّا. سأبقى هنا. سأفتحُ مدرسةً في بدموث. ولسوفَ تساعدني يوستاسيا.»

«إذا اعتمدتَ على يوستاسيا فقد يحالفُكَ التوفيق. إنّها امرأةٌ غيرُ مضمونةِ العواقب. ليسَ ثمّةَ فتاةٌ محترمةٌ تتجوّلُ على المرجِ ليلًا ونهارًا كما تفعلُ يوستاسيا. وهذا ليسَ كلَّ شيء. بلْ لقدْ كانَ بينَها وبينَ زوجِ توماسين في يومٍ منَ الأيّامِ علاقةٌ غريبة.»

«يوستاسيا صارحتْني بكلِّ هذا. لا ينبغي أنْ نختلفَ في هذهِ المسألة. لقدْ كنتُ آملُ في ترتيبِ لقاءٍ بينكِ وبينَ يوستاسيا. لكنَّ ذلكَ الآنَ ليسَ بالأمرِ المستحسن.»

خرجَ كليم وأخذَ يقطعُ الطريقَ خلالَ الأشجارِ السرخسيّة يمّمَ شطرَ ريمورو حيثُ كانتْ يوستاسيا تنتظرُه. وراحَ يقصُّ لها خصومةَ. «لنْ تسيرَ الأمورُ هكذا يا يوستاسيا. لا بدَّ منْ زواجِنا في الحال. لقدْ ادّخرتُ منَ النقودِ ما يكفينا. ولنْ يقفَ عائقٌ في سبيلِنا. يمكنُنا أنْ نقيمَ معًا في كوخٍ صغيرٍ على المرجِ حتّى أُنهي دراستي. وبعدَها نتّخذُ دارًا في بدموث لتكونَ مدرسةً. ولنْ يستغرقَ ذلكَ طويلَ وقتٍ.»

وتصرّفَ كليم بتعجّل. فما إن انبلجَ صباحُ اليومِ التالي حتّى استأجرَ كوخًا صغيرًا في ألدرويرث على مسافةِ ستّةِ أميالٍ في مكانٍ منَ المرجِ منعزل. وفي تلكَ الليلةِ شرعَ في حزمِ كتبِهِ ومتعلّقاتِه. وأنهى إلى أمّهِ أنّهُ مغادرٌ في اليومِ التالي.

قالَ لأمّه: «عندما يستقرُّ بنا المقامُ، أنا ويوستاسيا، فأرجو أنْ تتكرّمي بزيارتِنا.»

هنالكَ تطلّعتِ السيّدةُ يوبرايت إليهِ بوجهٍ لاحَ فيهِ الألمُ الشديد. وهيَ تردُّ عليه: «لا أظنّني فاعلةً ذلكَ!»

قالَ: «إذًا فلنْ يكونَ هذا خطئي ولا خطأَ يوستاسيا، يا أمّي.»

وإذْ قالَ هذا نهضَ فقبّلَها. ثمَّ افترقا وفي قلبِ كلٍّ منهما منَ الهمِّ والحسرةِ ما تنوءُ بحملِهِ الجبال.

وَجاءَ مَوْعِدُ الزِّفافِ، وَكانَتِ السَّيِّدَةُ يوبرايت جالِسَةً وَحْدَها في البَيْتِ تَتَعَجَّبُ مِمّا كانَ يَحْدُثُ في الجانِبِ الآخَرِ مِنَ المَرْجِ. فَما إنْ حَلَّتِ السّاعَةُ الثّانِيَةَ عَشْرَةَ حَتّى قَرَعَ سَمْعَها صَلْصَلَةُ الأَجْراسِ مُعْلِنَةً زِفافَ يوسْتاسْيا بِن آيْها.

رَدَّدَتْ لِنَفْسِها: «قُضِيَ الأَمْرُ. وَلٰكِنْ سَوْفَ يَأْتي اليَوْمُ الَّذي يَعَضُّ فيهِ بَنانَ النَّدَمِ.»

وَمَضى الزَّمَنُ وَأَشْرَقَتِ الشَّمْسُ فَوْقَ إغدون مُحَوِّلَةً الخَلَنْجَ الأُرْجُوانِيَّ إلى اللَّوْنِ القِرْمِزِيِّ. وَكانَ كليم ويوسْتاسْيا قَدِ اسْتَقَرّا في كوخِهِما في أَلْدَرْوِيرْث على الجانِبِ الشَّرْقِيِّ لإغدون، يَعيشانِ عيشَةَ البَساطَةِ مُسْتَمْتِعَيْنِ بالسَّعادَةِ.

وَبَعْدَ بِضْعَةِ أَسابيعَ مِنَ الرّاحَةِ والاسْتِرْخاءِ، عادَ كليم فَاسْتَأْنَفَ دِراسَتَهُ مُكِبًّا عَلَيْها. وَلَمْ تَفْقِدْ يوسْتاسْيا حُلْمَها في عَوْدَةِ كليم إلى باريس بِرُفْقَتِها.

وَفي أَحَدِ الأَيّامِ نَمى إلى السَّيِّدَةِ يوبرايت أَنَّ يوسْتاسْيا كانَتْ في طَريقِها إلى ميستوفر لِزِيارَةِ جَدِّها، وَمِنْ ثَمَّ عَزَمَتْ على أَنْ تَذْهَبَ لِتَرى يوسْتاسْيا هُناكَ بَدَلًا مِنْ زِيارَتِها في كوخِها في أَلْدَرْوِيرْث.



وما إن بلغت السيدة بورايت ذلك المكان حتى أتت يوستاسيا في الحديقة.

قالت السيدة بورايت: «إنما جئت لأراك!»

قالت يوستاسيا مختنقة: «أحقاً؟» غير مُلقية بالاً لتغيب السيدة بورايت عن حفل الزفاف. ثم أضافت: «لم أنتظر حضورك. فقد كنت أحس أنك ضدي.»

ردّت السيدة بورايت: «إنه لا يحرجني أن أصارحك بالحقيقة. لقد كنت ثابتة على مبدئي في معارضة زواجك بابني. أما الآن فقد قبلته. والحقيقة أني مستعدة للترحيب بك برغم يقيني أنك لست كفئاً تماماً لابني.»

أما يوستاسيا فقد برّح بها الغضب عندما صدمها سمعها ذلك التعليق. وصاحت بها في حدة: «لو دار بخلدي في تلك الآونة أني سأعيش في ريبة مكشوفة في هذا المرج الموحش لفكرت مرات ومرات قبل أن أقترن بابنك! إنك تظنينني قادرة على عمل الشر. لقد أوعزت إليه بأني شجعت السيد وايلديف على اهتمامه بي. وهكذا أنت دائماً تسممين أفكاره وتوغرين صدره علي!»

وحين عادت يوستاسيا إلى بيتها، بدا لكليم أنها مضطربة غاية الاضطراب، وصاحت فيه بمرارة: «لقد رأيت أمك ولن أراها مرة ثانية! لقد أهانتني بزعمها أني لست كفئاً لك كزوجة، وألمحت إلى أني سبيل تدمير حياتك. ففقدت أعصابي وتفوهت كلاماً بعبارات لا يمكن أبداً غفرانها. آه يا كليم! دعنا نخرج من هذا كله. خذني إلى باريس وعد إلى عملك القديم.»

قال: «لكنك تعلمين، يا يوستاسيا، أني طردت هذه الفكرة عن بالي منذ وقت طويل، وبالطبع لم أملك بالأمل في أن نذهب إلى باريس.»

قالت وهي تبكي: «أنا مقرة بذلك. لكني أظن أنه يتعين عليك الإنصات إلى آرائي.»

«حسن! هناك أمور اتفقنا على ألا نسترسل في مناقشتها. فظننت أننا اتفقنا عليها بالرضا والقبول.»

عقب هذه الأحداث المؤسفة راح كليم يسعى إلى ما يخفف عنه حدة العناء ولم تجد سوى المضي في الاستذكار حتى أحس أن عينيه تؤلمانه. فلما ترددت الحالة سوءا ذهب إلى الطبيب الذي أشار عليه بالمكث في غرفة مظلمة لمدة أسبوع، وأن يكف تماما عن القراءة لفترة ما. ثم نصح له بعد ذلك بقضاء فترة استرواح طويلة في الهواء الطلق.

وفي إحدى جولاته تقابل مع همفري قاطع شجر راح يتقبله لممارسة عمله، وهذا ما أغراه بالتفكير في أن يحترف تلك الحرفة الصحية لدفعة. لفترة من الزمان. وما إن عرض هذه الفكرة على يوستاسيا حتى غضبت، إذ فزعتها الفكرة حتى امتقع لونها وصاحت معترضة: «كلا، كلا. يا كليم!» ولكنه كان مصرا. لذلك ما انصرم سوى يوم أو يومين حتى بدأ كليم مهنته الجديدة. وكان يلبس مرتديا الملابس الجلدية الخشنة، حاملا بيده المنجل. كان يبدأ في الرابعة فجرا، ثم يستريح ساعتين عند الظهيرة ويستأنف العمل حتى غروب الشمس.

لقد قطع نياط قلب يوستاسيا مشاهدة زوجها على المرج. رجلا مسكينا برح به العذاب والألم، غارقا في عرقه مكتويا بحرارة الشمس اللافحة، وليس من أجر على عمله إلا دريهمات لا تسمن ولا تغني من جوع. وأحست بالمهانة. وما انفكت تذرف الدمع سخينا على حطام آمالها العظمى. بل لقد راودتها الرغبة في هجره.

وفي ليلة من ليالي الصيف الدافئة، ولكي تخفف يوستاسيا من كآبتها، أخبرت كليم أنها ذاهبة إلى قرية مجاورة لمشاهدة رقص الريفيات. ثم تصادف أن لقيت هناك دامون ويلديف. فطفقا يتمشيان عبر الأرض الفسيحة غير شاعرين بأن الصباغ ديغوري فين، الذي كان قد عاد إلى العمل في تلك المنطقة، قد لمحهما معا.

أما ديغوري، الذي لم يزل متعلقا بتوماسين، فطفق يهرول متوجها ناحية الكوايت وومان حيث كانت توماسين تترقب أوبة ويلديف. فقالت لديغوري وهي مطمئنة لا يداخلها أي شك فيه «لا بد أن دامون عائد الآن». فأجاب «نعم. لقد رأيته منذ لحظات يشتري حصانا ... ية في الحمال. بوجه أبيض وعرف أسود.»

علّقَتْ تُوماسين قائلةً: «شيءٌ مُذهِلٌ! إنّه ليس في حاجةٍ إلى حَولٍ آخَر.

واستأذَنَ ديغوري في الانصرافِ وانصَرَفَ. وما هيَ إلّا عشرُ دقائقَ حتّى تَبِعَ ويلديف دارَهُ فحيّتْهُ زوجتُهُ بأحسنِ تحيّةٍ. وسألَتْهُ: «أينَ الحصانُ، يا دامون؟ إنّ أحدَهُم رآكَ تقودُهُ من هنا. ويقولُ إنّهُ فَتَنَهُ بوجهِهِ الأبيضِ وغُرّتِهِ الأسودِ.»

«عجبًا! مَنْ وشى بهذا؟»

«ديغوري فين الصّبّاغ.»

«كلّا. إنّها غلطةٌ! ربّما رأى شخصًا يُشبِهُني.»

قالَ ويلديف ذلكَ وهوَ يُسائِلُ نفسَهُ عمّا إذا كانَ فين قد شَرَعَ في شنِّ الهجومِ عليهِ!





وقدْ ثبتتْ صحةُ ذلكَ ، فإنَّ ديغوري ، وقدْ لاحظَ أنَّ ويلديف قدْ جدّدَ اتصالَهُ بيوستاسيا وأنّهُ اعتادَ أنْ يُرى ماشيًا عبرَ المرجِ أمامَ كوخِها ، شرعَ في العملِ. فذاتَ مساءٍ عثرتْ قدمُ ويلديف في حبالةٍ كانَ قدْ نصبها لهُ في أحدِ الممرّاتِ ، وبعدَ بضعةِ أيّامٍ قامَ ديغوري ، الّذي كانَ مختبئًا في تلكَ الناحيةِ ، بإطلاقِ النارِ في مسارِ ويلديف. هذه الأحداثُ قدْ نالتْ منْ حماسةِ ويلديف في القيامِ برحلاتِهِ الليليّةِ.

بعدَ هذهِ الحادثِ قامَ ديغوري بزيارةٍ للسيّدةِ يوبرايت ، وأعطاها تقريرًا وافيًا عنِ المرضِ الّذي ألمَّ بعينِ كليم ، وكيفَ أنّهُ اتّخذَ منْ قطعِ الأخشابِ حرفةً مؤقّتةً. ولمْ تكنِ السيّدةُ على علمٍ بأيٍّ منْ هذهِ التطوّراتِ ، إذْ كانتْ قدْ رفضتْ أنْ تزورَ يوستاسيا. وهكذا اغتنمَ ديغوري فين هذهِ الفرصةَ السانحةَ المتمخّضةَ عنْ هذا الخبرِ السيّئِ ، وراحَ يراودُها بأنّهُ أولى بها ، لطلبِ الطمأنينةِ ، أنْ تقومَ بزيارةِ كليم ويوستاسيا في كوخِهما.

قالتِ السيّدةُ يوبرايت موافقةً على ذلكَ وقدْ هزّها وضعُ ابنِها المُهينُ: «أجلْ ، أكونُ سعيدةً أكثرَ سعادةٍ لوْ تمَّ التصالحُ بيننا. سأعملُ بنصيحتكَ ، وإنّي لماضيةٌ لأراهُما.»

في الوقتِ الّذي كانَ ديغوري يحاولُ إقناعَ السيّدةِ يوبرايت بالصُّلحِ ، كانَ كليم يُقنعُ يوستاسيا في الدرويرث بنفسِ الموضوعِ.

قالتْ يوستاسيا لكليم: «لنْ أضعَ أيّةَ عقبةٍ في طريقكَ ، يا كليم. لكنْ لا تتوقّعْ منّي القيامَ بالخطوةِ الأولى.»

كانتِ الساعةُ توشكُ على الحاديةَ عشرةَ تقريبًا ، في صباحِ يومٍ صائفٍ منْ أيّامِ شهرِ أغسطس ، عندما بدأتِ السيّدةُ يوبرايت سيرَها عبرَ المرجِ ميمّمةً شطرَ بيتِ ابنِها ، وذلكَ في محاولةٍ منها لإصلاحِ ذاتِ البينِ بينَها وبينَ كليم ويوستاسيا.

ولمّا لمْ تكنِ السيّدةُ يوبرايت قدْ زارتْ تلكَ الدارَ منْ قبلُ ، فلمْ تكنْ تعرفُ على وجهِ التحديدِ الطريقَ إليها ، ومنْ ثمَّ سألتْ عنِ الطريقِ أحدَ الحطّابينَ فقالَ لها: «سيّدتي ، أترينَ الحطّابَ الّذي يتحرّكُ هناكَ؟ إذا تبعتِهِ ، فسيبلغُكِ تلكَ الدارَ.»

لمْ يمضِ طويلُ وقتٍ حتّى أدركتِ السيّدةُ يوبرايت ، منْ مشيةِ وحركاتِ ذلكَ الحطّابِ الّذي كانتْ تقفو أثرَهُ ، أنّهُ ابنُها. فما إنْ رأتْهُ على تلكَ الهيئةِ حتّى غشيتْها صدمةٌ جارحةٌ.

كان كليم بجوار بيته على مسافة نصف ميل على الأقل منها. بيد أنه اضطرت إلى أخذ قسط من الراحة في ظل بعض الأشجار، فلمحها جوني نساتش، لذي كان يلتقط بعض ثمار الكرز فقبع بين الأشجار فترة تكفي لمشاهدة كل الأحداث التي تلاحقت. إذ همت السيدة يوبرايت بالذهاب بعد أن استراحت ربع ساعة فوجئت برجل آخر يدنو من لديـ. وراحت ترقبه وهو يطوف حول المنزل كمن يسترق السمع قبل أن يدخل لدار حقيقة ودنت السيدة يوبرايت إلى المدخل حيث كان قفاز اليد وخطاف قطع الأخشاب وحزم قد تركها كليم حال دخوله المنزل.

ثم تذكرت السيدة يوبرايت أن ذلك الزائر ما كان غير ويلديف. لذي كان قد عزم على أن يزور يوستاسيا في وضح النهار. حتى ولو كان كليم متواجداً، متذرعاً بأن زيارته لا تزيد على كونها زيارات اجتماعية بريئة

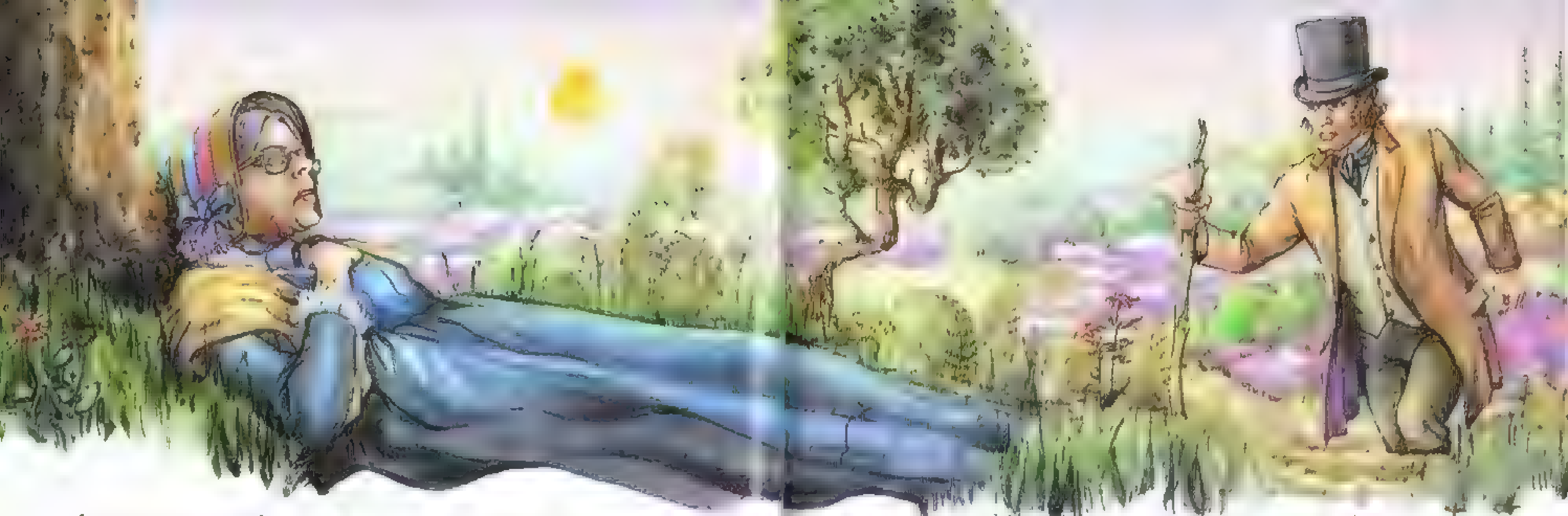
ونقر ويلديف على الباب نقرة هادئة. ففتحت يوستاسيا الباب، وسمحت للزائر بالدخول، وقالت بصوت خفيض: «لا تقلق! كليم يغط في نومه في الغرفة الخلفية»

ودفعت يوستاسيا باب الردهة فانفتح. وجفل ويلديف عندما شاهد كليم راقداً في سباته العميق على بساط مفروش على الأرض، وقد نهكه التعب من وعثاء عمل الصباح التناقض لجلي بين سترة ويلديف الأنيقة وملابس زوجها الخشنة. ملابس الكوخ، حز في نفسها حزناً

على أنهما قبل أن يتما كلامهما كان ثمة نقرة على الباب الأمامي فيممت يوستاسيا إلى إحدى النوافذ وتطلعت من خلالها ثم همست في أذن ويلديف قائلة: «إنها السيدة يوبرايت! ما أشنع ما فاهت به في وجهي! لقد ارتابت في صداقتنا الماضية وألحت بالائمة علي. إني أمقت تلك المرأة. ولن أفتح لها. لقد جاءت حقاً لزيارة كليم. وهكذا يستطيع هو أن يأذن لها بالدخول» وعندما نلعا هذه النقطة أحس بكليم وهو يتململ في رقدته ويهتف هتفة شبه مكتومة: «أمي.»

قالت يوستاسيا «نعم إنه يقظان، وسيمضي إلى الباب. يحسن أن تتسلل خارجاً، بدون أن تخرج من هذا الطريق.»





وما كادت تفرغ من كلامها حتى بادرت إلى الباب الخلفي فأخرجت ويلديف إلى الحديقة الجرداء التي عبثت بها يد الإهمال. وبذلك كان في استطاعته مغادرة المكان دون أن يلحظه أحد.

ومكثت يوستاسيا بضع دقائق قبل أن تدخل الغرفة الخلفية كيما ترى كليم وأمه. بيد أنها ما إن فتحت الباب حتى تبين لها لدهشتها أن كليم لم يزل في سباته وحده. فهرولت إلى الباب الأمامي فلم تجد أحدًا وتوارت السيدة يوبرايت وقد نال منها الأسى والحزن. ثم قفلت عائدة إلى دارها وهي تغمغم: «هذا كثير جدًا! كيف يتحمل كليم هذا الفعل؟ كان في الدار وأغلق الباب دون أمه!»

وتضعف بحالها شدة القيظ. غير أنها اضطرت إلى الراحة آخر الأمر. وفي اللحظة نفسها أقبل جوني نسانش الصغير عبر الممر، ولم تفته ملاحظة مظاهر الإعياء على وجه السيدة يوبرايت فسألها: «أأنت مريضة، يا سيدتي؟»

غمغمت السيدة يوبرايت: «لقد أغلق ابني الباب دوني! لمحتني زوجته من خلال النافذة وأبت أن تفتح لي الباب. لقد أغلقته دوني!»

وإذ غاب عن جوني إلى أي مدى وصل بها الإعياء، انطلق في سبيله وقد حيرته غمغمتها. بعد ذلك غالبت السيدة يوبرايت النهوض على ساقيها وراحت تترنح على الممر.

وفي اللحظة نفسها تقريبًا كان كليم يصحو من نومه وقد أنعشه ذلك النوم، وتطلع من النافذة ثم توجه بالقول ليوستاسيا: «أسبوع في إثر أسبوع وأمي لا تأتي لتزورنا. إني لذاهب إليها الليلة لأراها فإني أعتقد أنها لعاجزة عن السير في الخلاء وحدها.»

في وقت متأخر من تلك الليلة، ورغم احتجاجات يوستاسيا التي شعرت بالذنب، وأقلقها حادث بعد الظهيرة، انطلق كليم عبر الأرض الفسيحة. وعلى مسافة ثلاثة أميال سيرًا على الأقدام عثر على شبح امرأة جاثية. وشد ما أدهشه أن الجاثية كانت أمه التي كانت تلتقط أنفاسها المتعسرة المتعثرة، وتقاوم الغيبوبة بشق النفس. فحملها بلطف إلى أقرب مأوى للحطاب. ثم هرع إلى كوخ تيموثي فيروي طلبًا للمساعدة. وسرعان ما جاء العون في شخوص فيروي وهمفري وسام وسوزان نانسش وأولي داوسون وغرانفر كانتل، الذين هرعوا متبوعين بالطبيب.

في تلك الأثناء كانت يوستاسيا تترقّب أوبة كليم وقد أخذ منها الهلع والتعب. ثمّ قرّرت فجأةً المضيّ إلى بلومز إند، أملًا في لقاء كليم وهو عائد إلى الدار. وإذ همّت بالخروج طرق سمعها صوت عربةٍ قديمةٍ حيث تبيّن أنّ القادم جدّها.

قال الرجل: «يوستاسيا، هل سمعت أنّ ويلديف قد هبطت عليه ثروة؟ لقد مات عمّه في كندا وترك له كلّ ما يملك، وهو مبلغ يقدّر بأحد عشر ألفًا من الجنيهات!»
وقفت يوستاسيا بلا حراكٍ وسألته: «منذ متى علم ويلديف بهذا؟!»

«كأنّه سمع به هذا الصباح.. كم كنت غبيّةً يا يوستاسيا!»

ولمّا غادرها جدّها راحت تضرب في الأرض، وعقلها مشغول باللّبّ المذهل. فمع أنّ المال لم يكن ذا قيمةٍ لديها إلّا أنّها أحبّت كلّ ما يأتي به المال.

ولدهشتها صادفت ويلديف، فبادرته قائلةً: «أرى من الواجب تهنئتك!»

قال: «على الأحد عشر ألف جنيه؟»

«وهل رسمت خططًا للمستقبل؟»

«سوف أستغلّ تسعة آلاف، وباقي أنوي السياحة عامًا أو نحوه. سأمضي الشتاء والربيع في باريس ثمّ أشخص إلى إيطاليا واليونان ومصر وفلسطين. وبعد ذلك آمل أن أزور أمريكا وأستراليا والهند وربّما أعود إلى باريس مرّةً أخرى وأمكث هناك قدر ما أستطيع» كأنّ قلب يوستاسيا توقّف عندما صكّ اسم باريس أذنيها!

سألته يوستاسيا، وهي تكبح جماحها: «وهل ستصحب توماسين معك؟»

فأجاب: «نعم، إذا رغبت هي في ذلك، وإلّا بقيت في المنزل.»

وإذ كانا موشكين على الافتراق لحظا صوءًا أمامهما في مأوى أحد الحطّابين. فذهب ويلديف ليتطلّع الأمر، فشاهد الطبيب والقرويّين محيطين بالشبح المسجّى للسيّدة يوبريت. كان على قرب يسمح له بسماع تعليق الطبيب وهو يقول: «يؤسفني أنّها لن تسترد وعيها سريعًا. فقد كان القيظ والإجهاد فوق طاقة احتمالها.»



وعندها لمح جولي تشيشي يلحق بقوة صارخاً: «أوي! هذه هي الجرّة التي كنت أحضرها اليوم، والتي كانت تردّد أنها أغلى ما لديها دونها»

عندئذٍ كرّ ويلديف عائداً إلى بيتشتير وقصّ عليه بكلّ ما سمع

أما بيتشتير فقد عقّبت قائلةً: «لا غرابة في ذلك! إنّ الزمن الحقيقيّ في ...

... ويلديف ... !»

رغم ذلك سألته ويلديف: «ألم تستحي أن تدخل البيت؟»

نعم وجدت مكاناً للاحجة!

لم تبقَ السيّدة يوريت من عيونها إطلاقاً، فقد دفنت إبنتها ...



عقِبَ هذِهِ الأحداثِ المتتابعةِ أُصيبَ كليم بانهيارٍ تامٍّ. وكانَ في لحظاتِ هذيانِهِ تلكَ ينحي على نفسِهِ باللائمةِ ويحمّلُها مسئوليّةَ تلكَ المأساةِ. ولم يعزُهُ عن ذلكَ شيءٌ.

ومهما يكنْ مِنْ أمرٍ فقدْ بدا كليم وكأنَّ حزنَهُ قدْ أذابَ ما بنفسِهِ. وعادتْ إليهِ عافيتُهُ فأنشأ يرتّبُ معيشتَهُ مِنْ جديدٍ. ورحَلَ إلى بلومز إند ليُجهّزَ شئونَ أمِّهِ.

ولمْ يكُفَّ كليم عن التّفكيرِ في الظّروفِ الّتي أدّتْ إلى موتِ أمِّهِ، وقلّبَ الأمرَ على وجوهِهِ: ترى هلْ عرفتْ يوستاشيا أنّها جاءتْ؟ وهلْ طردتْ أمَّهُ حقيقةً؟

ولكيْ يحصُلَ على المعلوماتِ الصّحيحةِ دأَبَ على استخلاصِها مِنْ فمِ جوني نساتش وكريستيان كانتل؛ وكذلكَ ديغوري فِن الّذي عرَفَ شيئًا عنِ الحادثِ.

وبدأتِ الحقائقُ تتكشّفُ رويدًا رويدًا. فقدْ زارتْ أمُّهُ المكانَ. وقرعتِ البابَ فلمْ يسحبْ أحدٌ. ولكيْ يزدادَ كليم يقينًا انطلقَ إلى بيتِ سوزان نساتش لاستجوابِ ابنِها جوني مرّةً أخرى.

«أواثقٌ، يا جوني، أنَّ أمّي كانتْ في طريقِها إلى منزلي عندما رأيتَها أوّلَ ما رأيتَها؟»

«أجلْ. وكانتْ قبلَها تستريحُ تحتَ بعضِ الأشجارِ وهي تتطلّعُ إلى رجلٍ أقبلَ نحوَ الدّارِ، ثمَّ دخلَها.»

«كنتُ أنا ذلكَ الرّجلَ، يا جوني. عندما كنتُ أقومُ بقطعِ الأشجارِ.»

«لا، يا سيّدُ يوبرايت. كانَ رجلًا يرتدي ملابسَ مختلفةً.»

سألَهُ كليم كذلكَ، وقدْ برّحَ بِهِ الغضبُ بعدَ هذا الكشفِ: «وماذا حدثَ بعدَ ذلكَ؟»

«مشتْ في اتّجاهِ منزلِكَ وطرقتِ البابَ، فأزاحتْ سيّدةٌ ذاتُ شعرٍ أسودَ السّتارَ، وطرتْ خارجَ الدّارِ ثمَّ عادتْ أدراجَها.»

راحَ كليم يتساءلُ. «بحقِّ السّماءِ ما معنى كلِّ هذا؟»

وما طلعَ صباحُ اليومِ التّالي حتّى كانَ كليم يسيرُ عبرَ المرجِ متوجّهًا إلى كوخِهِ في ألدروورث كيْ يواجهَ زوجتَهُ بحياتِها. ودخلَ في الموضوعِ مباشرةً قائلًا: «أخبريني السّاعةَ مَنْ ذلكَ الشّخصُ الّذي كانَ معكِ بعدَ ظهرِ اليومِ الحادي والثّلاثينَ مِنْ شهرِ أغسطسَ، يومَ أنْ أغلقتِ البابَ في وجهِ أمّي فقتلتِها؟ قولي الحقيقةَ وإلّا قتلتُكِ!»

ردّتْ مِنْ خلالِ دموعِها وتأثّرِها: «لنْ أنبسَ ببنتِ شفةٍ. وسأظلُّ كذلكَ حتّى تُزهقَ روحي!»

وانهارتْ وهي ترتجفُ في شحبِها. ثمَّ ألقتْ بشالٍ حولَ كتفيْها، وهبّتْ وهي تقولُ: «إنّي راحلةٌ. سأغادرُ هذا المكانَ إلى الأبدِ.» وغادرتِ الدّارَ.



كان الوقت هو أواخر شهر نوفمبر عندما قبعت يوستاشيا في دار جدها عدة أسابيع في حجرتها القديمة مهدودة. وليس وراء ما بها من الحزن غاية بل لقد راودها عقلها أن تضع نهاية لحياتها. وعندما سمعت خبر انتقال كليم إلى دار أمه لم تبد أية بادرة من اهتمام أو استغراب.

وقد ظل شارلي وفيًا في حبه ليوستاشيا ولكي يسرّي عنها ما هي فيه من هم وحزن، عزم على مفاجأتها بإيقاد النار كما كانت معتادة في الخامس من شهر نوفمبر

في مساء ذلك اليوم أوقد شارلي نارًا تأجّجت في جذلٍ. لكنّ يوستاسيا لم تأتِ لتتمتّع بالمنظر الجميل. وإذ أحسّ بخيبة الأمر مضى فدقّ الباب ثمّ نادى الكابتن فاي. وعندئذٍ لبست يوستاسيا معطفها وقبّعتها وخرجت إلى الحديقة.

قال شارلي: «لقد أوقدتها عمدًا من أجل خاطرك، يا سيّدتي.»

قالت: «أشكرك، يا شارلي، ولكنّي أريدك أن تخمدها!»

ثمّ ذهبت يوستاسيا بعيدًا. وبينما هي واقفة بلا حراك، غارقة في ذكرياتها وأفكارها، ترامى إلى سمعها صوت حجر من حجارة صغيرة أُلقي في البركة. فأخذت نفسًا شديدًا من أثر المفاجأة وهمست بنفسها: «إنّه ويلديف!» وسرعان ما كان بجانبها. فصاحت: «ألست أنت الذي أوقد النار؟ لا تقترب منّي كثيرًا!»

قال: «عذرتِ النّار، يا يوستاسيا. إنّي قسمتُ اليوم في هذا كلّه!»

قالت: «بل أنا وحدي. لأنّي لم أفتح الباب لأمّه.»

قال ويلديف: «لقد بلغ هذا الأمر حدًّا خطيرًا، وإنّه لقاتلك يا يوستاسيا!»

انفجرت يوستاسيا في النحيب، وقد ارتعشت حتّى الأعماق من تأنيب الضمير.

قال ويلديف: «أرجوكِ سامحيني، يا أعزّ الأحباب! إنّي كنت سبب دمارك.»

«كلّا، لست أنت، يا دامون. إنّه هذا المكان الذي أعيش فيه.»

«أو تريدين معذرة تعودين إلى الأبد؟ إذا كان الأمر كذلك فقوليه صراحةً.»

«أجل، يا دامون. وبإمكانك مساعدتي في ذلك. إن استطعت حملي إلى بدموث ففي مقدوري قطع البقيّة الباقية من المسافة وحدي. أريد الرحيل إلى باريس.»

«ألا أصحبك إلى باريس؟ إنّي رجل موسر الآن.»

قالت يوستاسيا: «سأفكّر في هذا الأمر. فإذا قرّرت الذهاب فلسوف أصحبك. فسأُحدث إشارة في إحدى النوافذ في الساعة الثانية عشرة في نفس الليلة. توصلني إلى بدموث لأتّخذ قارب الصباح. اذهب الآن، يا دامون. أرجوك!»

في تِلْكَ الأَثْناءِ هَدَأَ غَضَبُ كليمِ في وحْدتِه ووَدَّ لوْ عادَتْ يوسْتَسْيا إِلَيْهِ تِلْكَ السَّاعةَ. وبعْدَ الارْتِقاب أيّامًا قَرَّ رأيُهُ أَنْ يُحَرِّرَ خِطابَ مُصالَحةٍ وَيُسَلِّمَهُ في مَنْزِلِ الكاهِنِ قاي في اليوْمِ التَّالي. وَكانَ هٰذا فَحْواهُ:

«عزيزتي يوسْتَسْيا،

إنَّ عَلَيَّ أَنْ أُطيعَ قَلْبي دونَ أَنْ أَسْتَشيرَ عقْلي كَثيرًا. فهلّا عُدْتِ إِلَيَّ، يا أَعزَّ النّاسِ؟ فَالماضي لَنْ أُحْدِثَ لَهُ ذِكْرًا وعفا اللهُ عمّا سَلَفَ. لَقَدْ كُنْتُ شديدَ القَسْوَةِ عَلَيْكِ. عودي إِلَيَّ ولَوْ بِلَوْمي وَتَأْنيبي. حُبُّنا يَنْبَغي أَنْ يدومَ، وإِنّي لَعَلى ثِقَةٍ أَنَّكِ مُسْتَطيعَةٌ إِيضاحَ ما لَمْ يَتَّضِحْ مِنْ قَبْلُ. عودي إذًا ولَسَوْفَ أَسْتَقْبِلُكِ بِأَحَرِّ مَعاني التَّرْحيبِ.

روحُكِ على الدَّوامِ،

كليم»

إلّا أَنَّ يوسْتَسْيا، رغْمَ كُلِّ هٰذا، لَمْ تَكُنْ تَشْعُرُ بِتَحَرُّكِ كليمِ في سبيلِ المُصالَحَةِ. فلَمْ تَزَلْ يُمَزِّقُها الشَّكُّ والتَّرَدُّدُ. شيْءٌ واحِدٌ كانَ يُمْكِنُ أَنْ يُغَيِّرَ رَأْيَها هُوَ ظُهورُ كليمِ أَمامَها بِرَغْبَةٍ صادِقَةٍ مِنْهُ في المُصالَحَةِ.

وَقُبَيْلَ اللَّيْلَةِ السّادِسَةِ مِنْ شَهْرِ نوفَمْبر كانَتْ قَدْ تَحَدَّدَتْ عَزيمَةُ يوسْتَسْيا على الهِجْرانِ إِلى الأَبَدِ، ومِنْ ثَمَّ حَزَمَتْ سَلَّةً مِنَ المَلابِسِ لِهٰذا الغَرَضِ. وَما إِنْ وافَتِ السّاعَةُ الثّامِنَةُ حَتّى هُرِعَتْ إِلى رُكْنِ الحَديقَةِ وَأَشْعَلَتْ عودَ ثِقابٍ فَأَوْقَدَتْ حُزْمَةَ حَطَبٍ ولَوَّحَتْ بِها في الهَواءِ. وما مَضَى غَيْرُ لَحَظاتٍ قَصيرَةٍ حَتّى جاءَها الرَّدُّ بِإِشارَةٍ مِنْ جانِبِ الكوايتِ ووِمان، فبعْدَ أَرْبَعِ ساعاتٍ سَيَكونُ وَيلْدِيف على أُهْبَةِ الاسْتِعْدادِ لِحَمْلِها في العَرَبَةِ إِلى بِدْماوث، كَما تَمَّ الاتِّفاقُ.

وبَعْدَ العَشاءِ ذَهَبَتْ يوسْتاسْيا إِلى غُرْفَةِ نوْمِها لإِتْمامِ تَرْتيباتِ الهَرَبِ. عِنْدَئِذٍ دَقَّ تيموثي فيرويي بابَ الدّارِ وَسَلَّمَ خادِمَ يوسْتَسْيا خِطابَ كليمِ إِلَيْهِ. والَّذي سَلَّمَهُ بِدَوْرِهِ لِلْكاهِنِ الَّذي ما لَبِثَ أَنْ أَسْنَدَهُ عَلى حَرْفِ المِدْفَأَةِ، حَيْثُ تَوَقَّعَ أَنْ تَراهُ يوسْتاسْيا

لَمْ تَظْهَرْ يوسْتَسْيا لِلْعِيانِ. وبعْدَ هُنَيْهَةٍ صَعِدَ جَدُّها السُّلَّمَ وطَرَقَ بابَها. لٰكِنَّ غُرْفَتَها



كانَتْ خاوِيَةً. حَتّى إذا ما هَبَطَ الدَّرَجَ تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّ بابَ الدّارِ كانَ مَفْتوحًا. فَأَدْرَكَ أَنَّ يوسْتاسْيا غادَرَتِ الدّارَ قَبْلَ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ بِرُبْعِ السّاعَةِ. فَانْزَعَجَ وَحارَ ماذا يَفْعَلُ. وَرَجَعَ إلى الرَّدْهَةِ فَرَأى أَنَّ ذٰلِكَ الحَطَبَ لَمْ يَزَلْ هُناكَ لَمْ يُقْضَ وَلَمْ يَزَلْ مُشْتَعِلًا حَيْثُ تَرَكَهُ عَلى حَرْفِ المِدْفَأَةِ.

وَقَفَتْ يوسْتاسْيا تَرْتَعِشُ تَحْتَ المَطَرِ في رينبرو، وَتَتَرَقَّبُ وُصولَ وايلْديف وَساءَلَتْ نَفْسَها وَهِيَ تَنْتَحِبُ: «أَيَنْبَغي عَلَيَّ أَنْ أُوَلِّيَ الأَدْبارَ؟ أَيَنْبَغي عَلَيَّ أَنْ أَذْهَبَ؟ هٰذا الرَّجُلُ لَيْسَ مِنَ الرِّفْعَةِ لِأَكونَ مِلْكًا لَهُ. لَقَدْ خُلِقْتُ لِأَشْياءَ أَعْظَمَ! إِنَّ هٰذا أَقَلُّ مِنْ نَصيبي! لَقَدْ خُدِشَتْ كَرامَتي وَرُزِئْتُ وَسُحِقْتُ بِأُمورٍ فَوْقَ طاقَةِ احْتِمالي!»

وَعِنْدَ بلومز إند انْتَظَرَ كليم في قَلَقٍ الرَّدَّ المُتَوَقَّعَ مِنْ يوسْتاسْيا، بَلْ ظُهورَها بِشَخْصِها. لٰكِنَّهُ ما إِنْ حَلَّتِ السّاعَةُ الحادِيَةَ عَشْرَةَ حَتّى أَوى إلى فِراشِهِ فاقِدَ الأَمَلِ. وَبَعْدَ ساعَةٍ أَقْلَقَهُ طَرْقٌ عَلى البابِ. كانَ الطّارِقُ توماسين الَّتي كانَتْ مُبْتَلَّةً وَمُرَوَّعَةً!

صاحت: «آه يا كليم! ثَمَّةَ مُؤامَرَةٌ يُدبِّرُها دامون ويوستاسيا! ويصعبُ على ظنّي أنَّ روحي سيهجرني. فقدْ أخبرني دامون ساعة التّمّة أنّه ذاهبٌ في رحلةٍ طويلة ولمْ يردْ على ذلك. وكان يحملُ مالًا كثيرًا. ربّما لمْ يغادرْ هذهِ النّاحية بعدُ. هلْ يمكنكَ الذهابُ إليه ومناقشته؟»

وارتمتْ توماسين تحتَ المدفأة منهارة، كسيفة البال متهدّجة الأنفاس.

قال كليم وهو يضيفُ مزيدًا من الحطب إلى النّار: «سأنطلقُ الآن.»

وأدهشته السّلعة لحظ أنّ اللفافة التي كانتْ على ذراع توماسين لمْ تكنْ غيرَ وليدتها التي حملتها معها عبْر المرْج وقتَ هبوب العاصفة.

وتركها كليم فيما شطرَ نحو ايت ووماث، تركها لتجفّف نفسها وصغيرتها أمام النّار. بيْدَ أنّ توماسين لمْ يقرَّ لها قرارٌ. فلفّتْ وليدتها وراحتْ تضربُ في الأرض عبْر المرْج تحْت المطر المدرار، وفي نيّتها بلوغ الفندق في أقرب وقتٍ. كانتْ تلتقطُ أنفاسَها لفتراتٍ قصيرة لكنّها ما لبثتْ أنْ أضاعت الطّريق في حلكة اللّيل الدّامس. فسمعتْ أمامها صوتًا ناديًا. هذا الصّوتُ كان منبعثًا منْ عربة ديغوري فين.

ولمّا سمعَ ديغوري صوتًا خرجَ منْ عربته فرأى توماسين. فقال: «ما الذي حدثَ؟ هلْ مررْتِ بالمكانِ منْ دقائقَ؟ إخالُني لمحْتُ شبحَ امرأةٍ تمرُّ منْ هاهنا!»

«كلّا. أنا ما جئتُ إلّا السّاعةَ. لكنْ عليَّ العودةُ إلى الفندق الآن.»

«سأصحبُكِ. دعيني أحملِ الوليدة» وانطلقا يخوضانِ في الوحْل.

سألته توماسين: «تُرى كمِ المسافة المتبقيّة إلى الفندق، يا ديغوري؟»

«حوالي نصف كيلومتر.»

صاحتْ وقدْ ذهب عنها الرّوعُ أخيرًا: «ألمحُ نورًا في النّافذة.»

«كلّا. إنّه نورُ مصباحِ عربة قُرْب الفندق.»

قالتْ توماسين لمعاونتهِ: «هلمّ، أسرعْ. توتَ قبل النّور وليس قبل الفندق!»



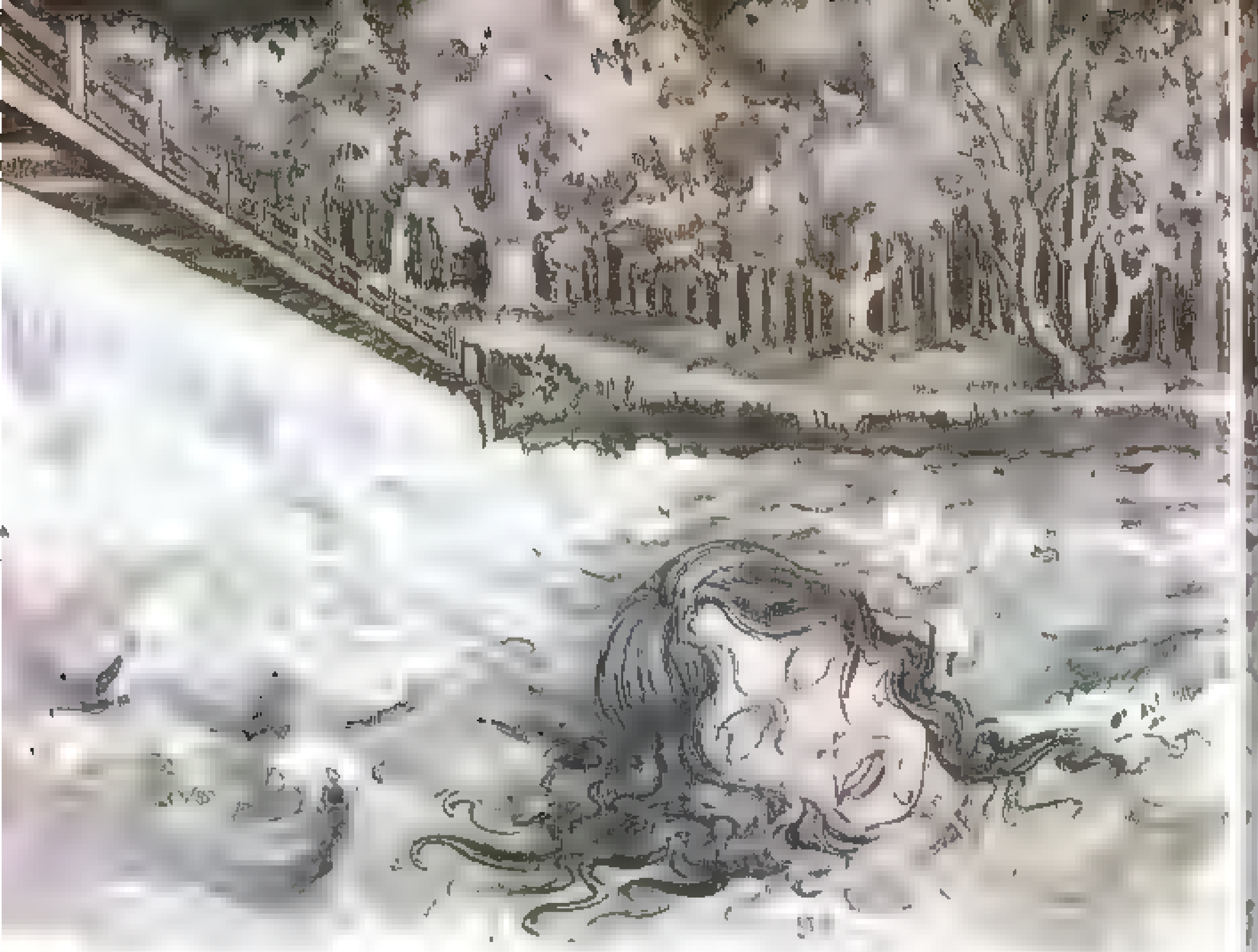


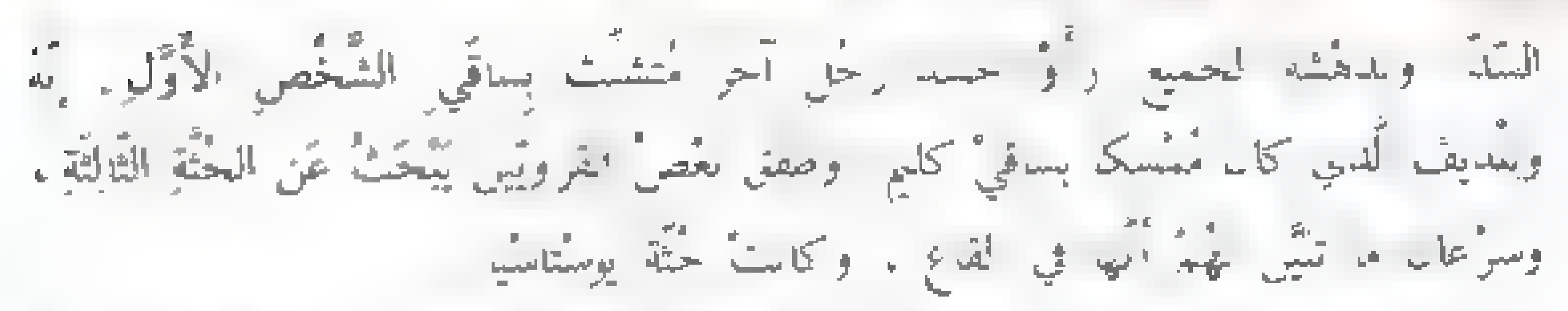
كانَ ويلديف يَنتظِرُ على مسافةٍ من الفُندُقِ عندما لاحَ له كليم فجأةً في حالةِ هياجٍ. وقبلَ أن ينبسَ أيٌّ منهما ببنتِ شفةٍ طرقَ سمعَيهما صرخةٌ مذعورةٌ.

وصرخَ كليم: «يا للهَولِ! أيمكنُ أن تكونَ يوستاسيا؟»

حملَ كلٌّ من الرجلَينِ مصباحَ عربةٍ وأسرعَ إلى السدِّ. أمّا كليم فقد اعتلى القنطرةَ التي أشرفتْ على فتحاتِ السدِّ، وحاولَ عبثًا أن يردَّ تدفّقَ المياهِ. أمّا ويلديف الذي كانَ واقفًا على الضفّةِ فقد أمكنَهُ أن يرى جسدًا يدورُ كالدوّامةِ.

صرخَ ويلديف وهوَ يقفزُ في اللُّجّةِ: «إنّي آتيكِ، يا يوستاسيا!» أمّا كليم فراحَ يخوضُ في الماءِ للوصولِ إلى الشخصَينِ اللذَينِ كانا في الماءِ المُهتاجِ. في تلكَ اللحظةِ جلبَتْ صرخاتُهُم ديغوري وتوماسين وفئةً قليلةً منَ الجيرانِ. وبدأ ديغوري يخوضُ في الماءِ حتّى استطاعَ أن يقبضَ على أحدِ الجسدَينِ وكانَ جسدَ رجلٍ، وأفلحَ في سحبِهِ إلى حافةِ





السدّ. ودُهشَ الجميعُ إذ رأوا جسدَ رجلٍ آخرَ متشبّثًا بساقَي الشخصِ الأوّلِ. إنّهُ ويلديف الذي كانَ متمسّكًا بساقَي كليم. وطفقَ بعضُ القرويّينَ يبحثُ عن الجثّةِ الثالثةِ، وسرعانَ ما تبيّنَ لهم أنّها في القاعِ. وكانتْ جثّةَ يوستاسيا.

وحُمِلَ الثلاثةُ إلى الفندقِ، واستُدعيَ طبيبٌ في الحالِ. وبعدَ العلاجِ ظهرتْ رعشةُ حياةٍ في جسدِ كليم. أمّا ويلديف ويوستاسيا فقد فارقتْهُما الحياةُ.

وإذْ جلستْ توماسين بجانبِ النّارِ تبكي وترضعُ وليدتَها، ومن خلفِها ديغوري المُخلصُ، أتى شارلي غارقًا في دموعِهِ ووجهُهُ شاحبٌ كوجوهِ الأمواتِ.

صعدَ الجميعُ إلى أعلى وكليم مُستندٌ إلى توماسين. فألقَوا نظرةً على وجهِ يوستاسيا وكانَ شعرُها الأسودُ البديعُ يحيطُ بمُحيّاها الحزينِ الشاحبِ. أمّا ويلديف فكانَ مُسجّى على الفراشِ الآخرِ عليهِ مسحةُ الشبابِ النضرِ.

تداول النّاسُ حكايةَ موتِ يوستاسيا ووايلديف، وظلّوا يلوكونها شهورًا عديدة. ورغم ذلك فإنّ تلك الثرثرات المنتشرة لم تبدُ أنّ أيًّا من الضحيّتين قد فقد كرامتَه بموته. فقد صعقهما القدرُ على حين غرّة وفي أوج كبر حياتهما بدلا من أن يبعث بحصّهما إلى شيخوخة تعسة.

برّح الحزنُ بتوماسين على زوجها الرّاحل. بيد أنّها شُغلت بطفلتها. واستردّت رويدًا رويدًا سالفَ هدوئها. ومن حسن حظّها أنّ وايلديف قد تركها في خفضٍ من عيش. ولم يمض طويلُ وقتٍ حتّى انتقلت إلى دارها القديمة في بلومز إند. حيث اتّخذ كليم بضع غرف في الدّور العلويّ من أجل دراسته وحياته البسيطة.

بعد مضيّ حوالي عامين فوجئت توماسين بزائر غير متوقّع. وكان ديغوري فين، الذي لم يعد يحمل الآن العلامة الحمراء الدّالّة على حرفته القديمة، لكنّه قد ابيضّ وجهُه وحسُن هندامه [illegible].

سألته توماسين ضاحكة: «كيف تأتّى لك أن تبيضّ وجهك، أيْ ديغوري؟»

«صرتُ إلى هذا بالتّدريج، يا سيّدتي.»

«تبدو أفضل ممّا كنتَ من قبل. أحسنت. ودونك فنجانًا من الشّاي.»

«شكرًا، يا سيّدتي. لكنّي لن أبقى طويلا اليوم. لعلّه قد بلغك أنّي امتلكتُ الآن مزرعة الألبان في ستيكلفورد قوامها خمسون بقرة.»

بعد ذلك التّاريخ أعلنت توماسين لكليم أنّها ستتزوّج ديغوري. وأقبل اليومُ السّعيد على عجل. بيد أنّ كليم ظلّ بمنأى عن مراسمه المألوفة، وقضى ذلك اليوم في حالٍ من الكآبة أشدّ من ذي قبل، زائرًا قبر أمّه ومنه إلى حيث رقدت يوستاسيا في هذه المقبرة السّحيقة. بعدها قفل راجعًا إلى داره حيث وجد العزاء في بطون كتبه.

وإذ جلس يتطلّع إلى كرسيّ أمّه الخالي، طفق يئنّ قائلا: «ليتني أصغيتُ لنصحها! لكنّ هذا كان غلطتي. أوّاه يا أمّي! لو أستطيع أن أبدأ حياتي من جديد.»

ولم يمض غير برهة حتّى فوجئ كليم بطرقة على الباب. وكان الطّارق شاربي



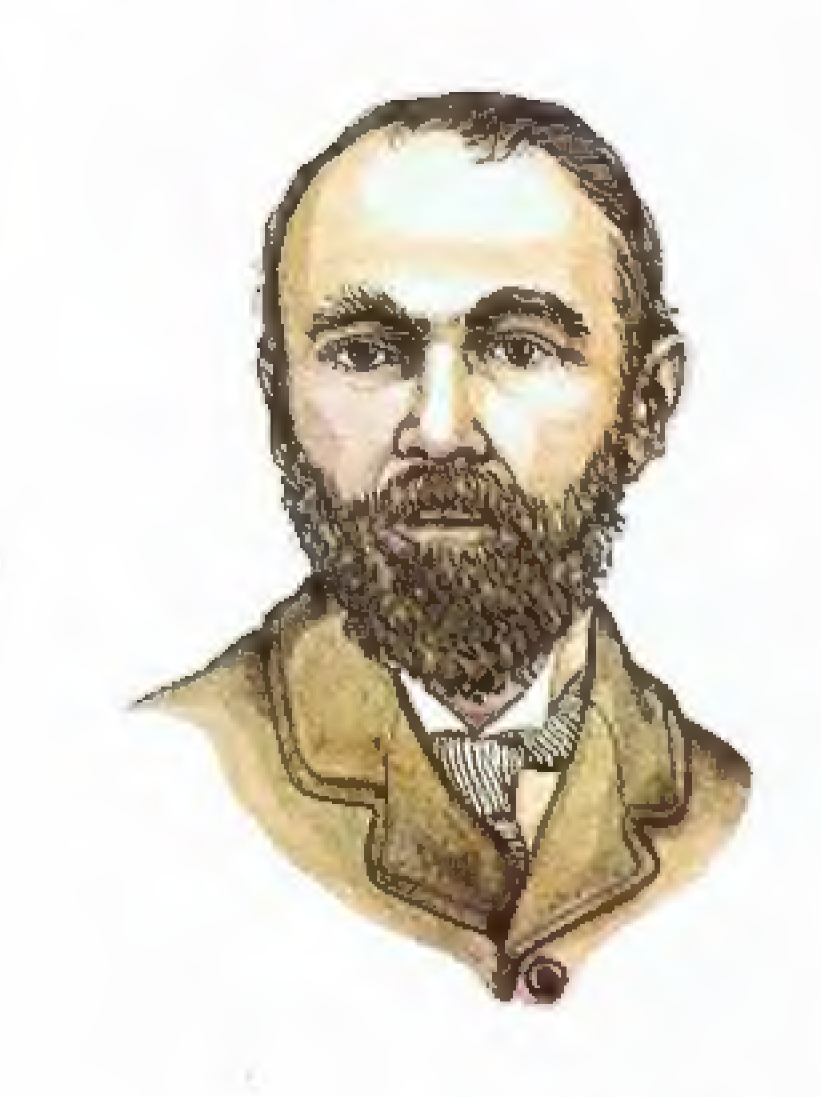
تشارلي! يَسُرُّني أَنَّكَ جِئْتَ، فَإِنَّ عِنْدي شَيْئًا أُريدُ أَنْ أُعْطِيَكَ إِيّاهُ.»

قالَ كليم هذا وَذَهَبَ إِلى مَكْتَبِهِ وَأَخْرَجَ مِنْهُ رِزْمَةً مِنَ الوَرَقِ الشَّفِّ. فَضَّها وَاسْتَخْلَصَ مِنْها خُصْلَتَيْنِ أَوْ ثَلاثًا مِنْ شَعْرٍ وحيمٍ غَزيرٍ. لَفَّ واحِدَةً مِنْها في وَرَقَةٍ وَأَعْطاها شارلي قائِلًا: «شارلي. كُنْتَ دائِمًا مولَعًا بِها، وَهِيَ يُسْعِدُها أَنْ تَكونَ عِنْدَكَ هذِهِ الذِّكْرى المُتَواضِعَةُ.»

رَفَعَ شارلي عَقيرَتَهُ في صَوْتٍ مَخْنوقٍ: «شُكْرًا لَكَ، يا سَيِّدُ بوريت. شُكْرًا لَكَ!» ثُمَّ انْطَلَقَ خارِجًا وَالدُّموعُ تَنْحَدِرُ عَلى وَجْنَتَيْهِ.

في يَوْمِ الأَحَدِ التّالي لِزِفافِ توماسينا إِلى ديغوري فين، تَسَلَّقَ كليم قِمَّةَ رينبارو مِثْلَما كانَتْ تَفْعَلُ يوستاسيا مُنْذُ سَنَتَيْنِ وَنِصْفٍ حَتّى. كانَ الطَّقْسُ دافِئًا حَيْثُ كانَ بَعْدَ ظُهْرِ أَحَدِ أَيّامِ الصَّيْفِ. وَقَدِ اجْتَمَعَ حَوْلَهُ طَوائِفُ مِنَ القَرَوِيّينَ مُصْغينَ إِلى مَوْعِظَةٍ جَمَعَتْ بَيْنَ النَّشاطِ وَالفَصاحَةِ. وَقَدْ أَرْهَفوا السَّمْعَ وَاشْرَأَبّوا بِأَعْناقِهِمْ. ذلِكَ لِأَنَّهُمْ عَرَفوهُ وَكانوا بِقِصَّتِهِ الشَّجِيَّةِ عالِمينَ. عَلى ذلِكَ المِنْوالِ ما فَتِئَ يَتَنَقَّلُ مِنَ الرّيفِ إِلى القُرى الصَّغيرَةِ المُجاوِرَةِ إِلى المُدُنِ. كَذلِكَ إِلى الأَسْواقِ وَشَواطِئِ البَحْرِ، حَيْثُ كانَ النّاسُ يَحْتَشِدونَ حَوْلَهُ مُصْغينَ. لَقَدْ وَجَدَ أَخيرًا صِلَتَهُ المَنْشودَةَ في الحَياةِ، وَوَجَدَ مَعَها كَذلِكَ الرِّضا وَالقَبولَ.





توماس هاردي

كانَ لِمِنْطَقَةِ «وِسِكْس» - وهُوَ الاسْمِ الّذي أَطْلَقَهُ هاردي على جَنوبِ - غَرْبِ إنْكِلْترا - وَقْعٌ هامٌّ على حَياتِهِ. فَفي تِلْكَ المِنْطَقَةِ وُلِدَ وتَرَعْرَعَ، وإلى تِلْكَ المِنْطَقَةِ كانَ مآبُهُ بَعْدَ كُلِّ جَوْلَةٍ أَوْ رِحْلَةٍ مِنْ أَسْفارِهِ الكَثيرَةِ. وقَدْ أَحَبَّ «وِسِكْس» واسْتَلْهَمَ مِنْ طَبيعَةِ أَرْضِها وسُكّانِها وَحْيًا طَبَعَ مُعْظَمَ قَصائِدِهِ ورِواياتِهِ.

وُلِدَ توماس هاردي في قَرْيَةِ «بروكْهامْبتون» بِمُقاطَعَةِ «دورْسِت» في الثّاني مِنْ حَزيرانَ (يونيو) عامَ ١٨٤٠. كانَ لِوالِدَيْهِ تَأْثيرٌ مُباشِرٌ على مَجْرى حَياتِهِ. فَبِوَحْيٍ مِنْ مِهْنَةِ والِدِهِ البَنّاءِ اتَّجَهَ إلى دِراسَةِ الهَنْدَسَةِ المِعْمارِيَّةِ. أَمّا والِدَتُهُ فَقَدْ غَرَسَتْ فيهِ الشَّغَفَ بِالكُتُبِ وحُبَّ المُطالَعَةِ. عَمِلَ أَوَّلًا في بَلْدَةِ «دورْشِسْتر»، ثُمَّ انْتَقَلَ في السَّنَةِ ١٨٦٢ إلى لندن حَيْثُ الْتَحَقَ بِمَكْتَبِ أَحَدِ المُهَنْدِسينَ. وقَدْ أَفادَ مِنْ وُجودِهِ في العاصِمَةِ فَزادَ مِنْ مُطالَعاتِهِ وشاهَدَ المَسْرَحِيّاتِ وزارَ مَعارِضَ الفُنونِ وبَدَأَ بِنَظْمِ الشِّعْرِ.

عادَ ثانيةً إلى «دورْسِت» حيثُ بدأَ تأليفَ الرِّواياتِ. لَمْ يَنْشُرْ هاردي روايتَهُ الأُولى «الفقيرُ والسَّيِّدةُ النَّبيلةُ» [The poor Man and the Lady] ، ولٰكِنَّهُ نالَ تشْجيعَ أَصْدِقائِهِ، فتابَعَ الكِتابةَ وظَهرَتْ لَهُ بِضْعُ رواياتٍ. حقَّقَ هاردي أَوَّلَ نَجاحٍ شَعْبِيٍّ كَبيرٍ لَهُ، سنةَ ١٨٧٤، عِنْدَ نَشْرِ روايتِهِ «بَعيدًا عَنْ صَخَبِ النّاسِ» [Far from the Madding Crowd]، وقَدْ تزَوَّجَ في ذاكَ العامِ مِنْ إيما غيفورْد.

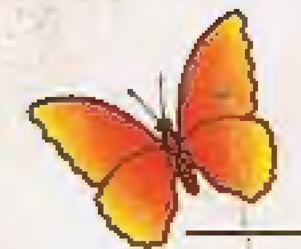
أَمْضى السَّنواتِ العَشْرَ التّاليةَ في رِحْلاتٍ داخِلَ بريطانيا وخارِجَها، ثُمَّ اسْتَقرَّ، قُرْبَ «دورْشِسْتَر»، في منْزِلٍ صَمَّمَهُ بِنَفْسِهِ. وهُناكَ قامَ بِكِتابةِ رواياتِهِ الشَّهيرةِ، ومِنْ بيْنِها: «مُحافِظُ كاستَرْبرِدْج» [The Mayor of Casterbridge]، و«سُكّانُ الأَحْراجِ» [The Woodlanders]، و«تِسّ دوبرْفيل» [Tess of the Dubervilles]. وهٰذِهِ الرِّوايةُ الأَخيرةُ أَثارَتْ ضَجَّةً كُبْرى لَدى نَشْرِها، فَقَدِ اعْتبَرَ النُّقّادُ مَوْضوعَها فاضِحًا ومُثيرًا. عامَ ١٨٩٦ ظَهرَتْ روايتُهُ التّاليةُ «يَهوذا الغامِض» [Jude the Obscure]، فقابَلَها النُّقّادُ أَيْضًا بِعاصِفةٍ مِنَ الإِدانةِ، فقرَّرَ هاردي التَّوَقُّفَ عَنْ كِتابةِ الرِّواياتِ، وكَرَّسَ بَقِيَّةَ حياتِهِ لِنَظْمِ الشِّعْرِ، وجاءَتْ قَصائِدُهُ تُضاهي رواياتِهِ جَوْدةً ورَوْعةً. وقَدْ تَتابَعَتْ شُهْرةُ هاردي في التَّنامي، بِالرَّغْمِ مِنَ الانْتِقاداتِ العَنيفةِ لِمَوْضوعاتِ بَعْضِ رواياتِهِ، وحازَ العَديدَ مِنَ الأَوْسِمةِ والجَوائِزِ.

ماتَتْ زَوْجتُهُ سنةَ ١٩١٢، ثُمَّ تزَوَّجَ ثانيةً سنةَ ١٩١٤ مِنْ مُدَبِّرةِ مَنْزِلِهِ وسكرتيرتِهِ فلورنْس دَغْديل. تُوُفِّيَ هاردي سنةَ ١٩٢٨ وهُوَ في السّابِعةِ والثَّمانينَ.



كتب الفراشة - القصص العالميّة

1 - الدُّكتور جيكل ومِستر هايْد
2 - أوليفَرتْويسْت
3 - نِداء البَراري
4 - موبي دِك
5 - البَحّار
6 - المخْطوف
7 - شَبَح باسْكِرْڤيل
8 - قِصَّة مَدينَتين
9 - مونْفليت
10 - الشَّباب
11 - عَوْدة المُواطِن
12 - الفُنْدق الكبير
13 - حَولَ العالَم في ثمانينَ يَومًا
14 - رِحْلَة إلى قَلْب الأرض
15 - كُنوز الملِك سُلَيْمان
16 - سايْلس مارْنَر
17 - شيْرلي
18 - رِحلات جَلِڤَر
19 - بعيدًا عن صَخب النّاس
20 - مُغامَرات هَكلبري فين
21 - ديڤيد كوپرفيلد
22 - بْليك هاوُس
23 - بْلاك بْيُوتي



كتب الفراشة

القصص العالميّة ١١. عودة المُواطِن

رِوايَة «عَوْدة المُواطِن» لِتوماس هاردي قِصَّة حُبّ مَتينَة الحَبْكَة، مُشوِّقة الأُسْلوب، تُقدِّم لَنا صُورَة عَن صِراع الإنْسان عَلى جَبَهات ثَلاث: مَع نَفْسه – أوَّلًا – لِمُقاوَمَة حُبّ المُغامَرة والتَّسرُّع، ومَع غَيْره مِن النّاس – ثانِيًا – إذْ تَتَضارَب المَصالِح والأَهْواء والأَساليب، ومَع البيئَة – ثالِثًا – حَيْثُ يُواجِه سِلسِلَة مِنَ الوَقائِع تُقنِعُه – في النِّهايَة – بِأَنْ لا سَعادَةَ لِلفَرْد إلّا إذا كان مُنسجِمًا مَع مُحيطه.





مكتبة لبنان ناشرون



01C196811